الأنبياء الكرام

لوط وشعيب وأيوب

عليهم السلام

اسم الكتاب: الأنبياء الكرام

لوط وشعيب وأيوب (عليهم السلام)

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة

مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ-٢٠٢٠م

تنسيق الكتاب وتصميم الغلاف: د. نافذ الجعب

سلسلة حديث الأنبياء(5)

الأنبياء الكرام

لوط وشعيب وأيوب

عليهم السلام

الأستاذ

إبراهيم أحمد قشطة

رفح - فلسطين

١٤٤٢هـ-٢٠٢٠م

مطبعة نافذ
0599920845

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبِهِ نَسْتَعِيْنُ

المقدمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

وبعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

ثم أما بعد:

هذا كتاب حديث الأنبياء الجزء الخامس، والذي يروي قصص ثلاثة أنبياء كرام: لوط، وشعيب، وأيوب عليهم السلام مع أقوامهم.

وقد وقع هذا الكتاب في أربعة أبواب، حيث جاء الباب الأول (نبي الله الطاهر لوط عليه السلام) يحكي قصة لوط – عليه السلام – مع قومه أهل سدوم الخبثاء، الذين ارتكبوا فاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين، وهي إتيان الذكور من العالمين، وترك ما خلق الله لعباده الصالحين، وقد قسم الباب إلى فصلين:

الفصل الأول (قصة نبي الله لوط عليه السلام) والذي تحدث باستفاضة عن قوم سدوم الخبثاء، وبعثة لوط إليهم ودعوته لهم، وتناول الفصل موقف أهل سدوم السيئ تجاه دعوة لوط الكريمة لهم، وخُتم الفصل بذكر الهلاك الذي حلّ بسدوم جزاء وفاقًا.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة لوط عليه السلام) سلط الضوء على أهم الثمار المستطابة من قصة نبي الله الكريم لوط عليه السلام.

وجاء الباب الثاني (خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام) يحكي قصة نبي الله البليغ الفصيح شعيب – عليه السلام– مع قومه أهل مدين، الذين جمعوا مع كفرهم منكرات عظيمة من معاملات مادية جشعة، وقطع للطرق، وصد عن سبيل الله، وقد وقع الباب في فصلين:

جاء الفصل الأول (قصة نبي الله شعيب عليه السلام) يجيب عن الأسئلة الآتية: من قوم شعيب؟ ما المنكرات التي فشت فيهم؟ ما الطرائق البديعة التي سلكها شعيب – عليه السلام – في دعوته لقومه؟ ما الهلاك الذي أحاط بقوم شعيب؟

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة شعيب عليه السلام) تناول أهم الثمار المستطابة من قصة نبي الله الكريم شعيب عليه السلام.

وجاء الكتاب بالباب الثالث (النبي الصابر أيوب عليه السلام) والذي أفاض الحديث عن رمز الصبر أيوب

عليه السلام، الذي ضرب القدح المعلى في الصبر حتى قيل في المثل: صبرًا كصبر أيوب!

وقد قسم الباب إلى فصلين:

جاء الفصل الأول (قصة نبي الله أيوب عليه السلام) يتحدث عن ابتلاء أيوب الشديد، وذكر الفصل نعم الله على نبيه أيوب جزاء لصبره وإخلاصه، وناقش الفصل قضية يمين أيوب، وختم الفصل بالتنويه للإسرائيليات التي شوهت قصة أيوب عليه السلام.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة أيوب عليه السلام) أبرز أهم الثمار المستطابة من قصة نبي الله الكريم أيوب عليه السلام.

وختم الكتاب بالباب الرابع (نبي الله الكريم يونس عليه السلام) والذي قصّ خبر نبي الله الكريم المطيع صاحب الحوت الملقب بذي النون، وقد قسم إلى فصلين:

جاء الفصل الاول (قصة نبي الله يونس عليه السلام) يتحدث عن دعوة يونس لقومه، وسبب غضبه عليهم، والمنحة التي وقعت له، وامتنان الله على يونس بالتوبة عليه ورفع الغمّ عنه، وكيف أبدل الله محنته إلى معجزة، وعدد الفصل نعم الله على يونس الكريم.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة يونس عليه السلام) تناول أهم الثمار المستطابة من قصة يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في اجتهادي هذا، فما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من نقص

أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، آملًا أن ينفع الله تعالى بهذا الكتاب، وأن يثيب من أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج مؤمّلًا جَبْرَ ما لاقيت من عرجِ
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لرب السماء في الناس من فرجِ
وإن ظللتُ بقفـــر الأرض منقطـعًا فما على الأعرج في ذلك من حـــرجِ

إبراهيم أحمد قشطة

الباب الأول

نبي الله الطاهر



مقدمة الباب:

هذا باب نبي الله الطاهر لوط عليه السلام، والذي يروي قصة النبي الكريم تلميذ النبي الحليم إبراهيم عليه السلام، يحكي قصة حامل لواء التوحيد والإيمان، ناصر العفة والنقاء، قاهر الرذيلة والفحشاء.

وقد وقع الباب على شكل فصلين، الفصل الأول (قصة لوط عليه السلام) حيث أجاب عن الأسئلة الآتية:

من قوم لوط؟ وإلى أي مدى وصل خبثهم؟ وما الطرائق التي استخدمها لوط في دعوتهم؟ وما كان موقف أهل سدوم من دعوة نبيهم؟ وخُتم الفصل بذكر الهلاك الذي لحق بأهل سدوم.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة لوط عليه السلام) أشار إلى أهم الثمار المستطابة من قصة نبي الله الكريم لوط عليه السلام.

الفصل الأول

قصة نبي اللّه

لوط عليه السلام

الفصل الأول

قصة نبي الله لوط – عليه السلام –

تمهيد:

" لوط عليه السلام من الرسل الكرام، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، وغيرها من سور القرآن. " (محمد الصابوني)

ولوط هو ابن أخي إبراهيم – عليهما السلام – وقد آمن به، وهاجر معه من أرض العراق إلى أرض كنعان (فلسطين)، وقد نبأه الله في حياة الخليل إبراهيم؛ لذا قصة لوط تبع لقصة إبراهيم عليهما السلام.

من قوم لوط؟

قوم لوط هم أهل سدوم وكان مسكنهم غور فلسطين، " وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب؛ لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود وشعيب، فقد كانوا من نفس العشيرة، ولعل التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٨٠) يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم." (محمد الصابوني)

خبث أهل سدوم:

لم تعرف الإنسانية قومًا أفجر من أهل سدوم، ولا أسوء سريرة منهم، فقد ابتدعوا فاحشة ما سبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي: إيتان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾ (الأعراف: ٨٠) أي: " أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة

المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان. " (محمد الصابوني)

قال أبو حيان: " ولما كان هذا الفعل معهودًا قبحه، ومركوزًا في العقول قبحه، أتى به معرفًا بالألف واللام (الفاحشة)، بخلاف الزنى فإنه قال فيه (إنه كان فاحشة)، فأتى به منكرًا، والجملة المنفية (ما سبقكم) تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة، وأنهم مبتكروها، والمبالغة (من أحد) حيث زيدت (من) لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم (العالمين) جمعًا، قال عمر بن دينار: ما رُؤي ذكر على ذكر قبل قوم لوط." (محمد الصابوني)

وقد شنع لوط عليهم هذا الصنيع أشد تشنيع فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الأعراف: ٨١)

وهذا بيان للفاحشة، وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بأن واللام، أي: إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في

أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه، دون ما أحله الله لكم من النساء، ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات، فقال: (بل أنم قوم مسرفون) أي: لا عذر لكم بل عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء.

قال أبو السعود: " وفي التقييد بقوله (شهوة) وصف لهم بالبهيمية الصرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد، وبقاء النسل لا قضاء الشهوة. " (محمد الصابوني)

وقال موبخًا: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت: ٢٩) فقد وصل فجورهم إلى أنهم كانوا يأتون المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافها في ناديهم، وهو مكان اجتماعهم، ومحل حديثهم وسمرهم.

قال ابن كثير: " إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسيهم، وربما وقع الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلًا، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلًا، فأخذهم الله أخذًا وبيلًا. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ولم يكتف أهل سدوم الخبثاء بكل هذه المنكرات الداهيات، فقد كانوا يقطعون الطريق، ويخيفون الرفيق، قال تعالى: ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٩) أي: " وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال. " (محمد الصابوني) قال ابن كثير: " كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم. " (ابن كثير:١٩٨٧)

دعوة لوط لقومه:

أرسل الله لوطًا إلى سدوم الكافرين، فدعهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦١ – ١٦٣)

وبين لهم أن دعوته دعوة متجردة من كل أطماع الدنيا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦٤) أي: لا أطلب من دعوتي لكم منصبًا ولا مالًا، إنما أرجو من الله أن يجزني خير الجزاء.

ونهاهم عن تعاطي ما ذكره الله عنهم من الفواحش المنكرات ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦٥) استفهام لوط في هذه الآية هو استفهام تقريع وإنكار أي: أتنكحون الذكور في أدبارهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ (الشعراء: ١٦٦) أي:

وتتركون الحلال الطيب مما أباحه الله لكم من الاستمتاع بالإناث؟! ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ (الشعراء: ١٦٦) أي: بل أنتم قوم تجاوزوا الحد في الشناعة والبشاعة.

موقف أهل سدوم السيئ من دعوة لوط:

استمعت سدوم لدعوة لوط التقية النقية الطاهرة، فلم يؤمن منهم إلا نفر قليل، أما أغلبيتهم بقوا على الكفر مستمسكين، واستمروا على الفواحش قائمين حتى استمرؤوها، ولم يقف بهم غيهم إلى هذا الحدّ، بل تجاوزه وقالوا لنبيهم لوط كلمتهم الرديئة الفاجرة: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾ (الشعراء: ١٦٧) أي: " لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجنك من بين أظهرنا، وننفيك من بلدنا، فتوعدوه بالطرد والإبعاد. " (محمد الصابوني)

فأعلن لوط البراءة منهم، وقال: ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦٨) أي: إني لعملكم من المبغضين له أشد البغض، والكارهين له أشد الكراهية.

عندما سمعت سدوم بهذه البراءة من لوط، قويت حجة الداعين إلى إخراج آل لوط من البلدة، فقالوا بحسم: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ (النمل: ٥٦) أي: اطردوا لوط وأهله من بلدتكم، وقد جمع أصحاب هذه الدعوة الظالمة مع كفرهم وفجورهم غباءً كثيرًا، حيث عللوا سبب طرد آل لوط: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (النمل: ٥٦) أي: لأنهم قوم يتنزهون عن فعلنا، ويرونه عملًا قذرًا!!

قال قتادة: " عابوهم والله بغير عيب، أنهم يتطهرون من أعمال السوء! " (محمد الصابوني)

فجمعوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد والغباء!

وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذا هو قول أهل الفساد الطغيان ومنطقهم في كل زمان ومكان.

هلاك أهل سدوم:

وصل خبث أهل سدوم إلى أقصى مدى، واستخفوا بوعيد الله إلى أبعد حدّ، فقالوا للوط مستهزئين: ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٩) أي: ائتنا يا لوط بهذا العذاب الأليم الذي تهددنا به إن كنت صادقًا حقًا!

يا لجرأتهم!!

فعندئذ دعا عليهم لوط دعوة غضب: ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٠) أي: قال

لوط: رب أهلكهم وانصرني عليهم، فإنهم سفهاء أغبياء فاسدين مفسدين، لا يُنتظر منهم صلاح، ولا يُرجى منهم فلاح، فقد غرقوا في الفساد إغراقًا، وانغمسوا في الجور انغماسًا، " فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ويقال: أن هؤلاء الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، واسرافيل وقد جاؤوا في صورة شبان حسنان.

تساؤلان:

١. لِمَ أرسل الله ملائكته بهذه الصورة الحسنة الجميلة؟

أرسل الله الملائكة بهذه الهيئة البهية لإقامة الحجة على أهل سدوم.

٢. هل يجوز للنبي أن يدعو على قومه بالهلاك؟

قال الرازي: " واعلم أن نبيًا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك)، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال، ولا يرجى منهم صلاح في المآل طلب لهم العذاب. " (محمد الصابوني)

ملائكة الرحمن في ضيافة إبراهيم:

مرَّ هؤلاء الملائكة الكرام، وهم في طريقهم إلى قرى سدوم، على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وكانوا حاملين إلى إبراهيم وزوجته البارة سارة بشرى الرحمن، وهبة العزيز المنان، بهبتهما ولدًا عليمًا اسمه إسحاق عليه السلام.

فَطِنَ إبراهيم – عليه السلام – إلى أن هؤلاء الملائكة الكرام، قد جاءوا لمهمة أخرى غير البشارة بإسحاق، فسألهم: ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الذاريات:

٣١) أي: " ما شأنكم الخطير، الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار؟!" (محمد الصابوني)

فأخبره بما جاءوا به من الأمر الجسيم والخطب العميم، قالوا: ﴿ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الذاريات: ٣٢) أي: قال الملائكة الأطهار: إنا أرسلنا لإهلاك قوم لوط الفجار.

تخوف إبراهيم الحليم على ابن أخيه لوط – عليهما السلام – أن يشمله الهلاك إذا وقع، فنوه وقال لهم: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ ﴾ (العنكبوت: ٣٢) أي: كيف تهلكون أهل القرية وفيهم نبي الله الكريم لوط؟!

فطمأنوه أنه من الناجين السالمين، وأهله أجمعين، إلا زوجته فهي من الهالكين ﴿ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ

﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٢)

تساؤل: ما سبب هلاك امرأة لوط؟

سبب هلاك امرأة لوط أنها كانت كافرة مثل قومها الكافرين، فقد ضارعتهم وشابهتهم في الكفر.

إبراهيم الحليم أشفق على أهل سدوم، فأخذ يراجع الملاكة الكرام؛ لعله ينجح في تأخير العذاب الواقع بهم، فيقع ما تمناه من توبة أهل سدوم، ويسلموا لرب العالمين، وصدق الله في إبراهيم ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (التوبة: ١١٤)

ومازال إبراهيم يجادل الملائكة الكرام مرة تلو المرة، محاولًا تأجيل ما هم عليه عازمون من إلحاق العذاب الأليم بأهل سدوم، حتى جاءه النهي الإلهي ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ (هود: ٧٢) أي: اترك يا إبراهيم دفاعك عن قوم لوط، فقد تحقق القضاء، ونفذ القدر بعذابهم النازل بهم غير المصروف عنهم.

ملائكة الرحمن في ضيافة لوط:

انتقلت ملائكة الرحمن إلى قوم لوط، فدخلوا على لوط وهم في صورة شبان حسان، دخلوا عليه وهو لا يعلم أنهم ملائكة. (١)

---

(١) قال القرطبي: " لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ...، بصرت بنتا لوط – وهما تستقيان – بالملائكة، ورأتا هيئة حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية، قالتا: فأن أهلها أصحاب فواحش، فقالوا: من يضيفنا؟ قالتا: نعم، هذا الشيخ، وأشارتا إلى لوط. (القرطبي: ٢٠٠٢)

وهذا الكلام به تخرصات غير مقبولة، وهي حديث الملائكة مع ابنتا لوط، ومن أين جاؤوا بهذا الحوار؟ ومن أين علمنا بعددهن؟ والظاهر أن هذا الخبر من تزايد القصاصون.

فلما رآهم لوط ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ (هود: ٧٧) أي: أصابه ضجرًا شديدًا، وساء ظنًا بقومه، فقومه قوم سوء فاجرين ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾ (هود: ٧٧) أي: ضاق صدره وانقبض بمجيء هؤلاء الأضياف، وضيق لوط بهم لم يكن بخلًا، وإنما لأنهم كانوا في صورة جميلة حسنة، وهو يعرف خبث قومه وسوء سيرتهم، فخشى عليهم من قومه الفجار ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ٧٧ ﴾ (هود: ٧٧) أي: هذا يوم كثير الشرّ.

تساؤل: لِمَ لَمْ يعتذر لوط عن استضافهم ما دام أنه يعرف سوء سريرة قومه؟

لوط خشى إن لم يضفهم هو سيضيفهم غيره، فاضطر لاستضافتهم، وحتى يتحقق قدر الله.

علمت سدوم بقدوم هؤلاء الشبان الحسان، واستضافة لوط لهم، ويذكر أن الذي أخبر سدوم بهؤلاء الضيوف الحسان زوجة لوط وهذا قريب، ويحتمل أن أناس سفهاء

من قوم لوط هم الذين أشاعوا خبر استضافة لوط لهم، على كل حال علمت سدوم بخبر قدوم هؤلاء الضيوف الحسان، ففرحوا بذلك الصيد الثمين.

فجاءوا يهرعون إليه ضامرين السوء والمنكر والشر ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ (هود: ٧٨) أي: " جاء قومه يسرعون الخطى؛ لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعًا." (محمد الصابوني) ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ (هود: ٧٨) أي: هذا مع سلف من الذنوب الكثيرة من قطع طرق، وإخافة مارة، وسلب أموال الناس ظلمًا وعدوانًا.

وقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ (الحجر: ٦٧)

قال سيد قطب: " تسامع القوم بأن في بيت لوط شبان صباح الوجوه، ففرحوا بأن هناك صيدًا، ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ ﴾ (الحجر: ٦٧)، والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة علانية، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان، بينما أولئك القوم المجرمون يجاهرون بها ويتلمظون عليها، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير." (سيد قطب: ١٩٨٦)

تفاجأ لوط بمقدم قومه الفاسدين، " فوقف مكروبًا يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم، ويستجيش وجدان التقوى لله، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها

نخوة ولا شعور إنساني، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع. " (سيد قطب: ١٩٨٦)

مجادلة لوط لقومه:

أخذ يجادلهم مجادلة عنيفة ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ ﴾ (الحجر: ٦٨ – ٧١)

في هذا الموقف العصيب دار الحوار الخالد بين الفضيلة والرذيلة، دار حوار الطهر مع الفحش، بدأ هذا الحوار بأن طلب حاملي راية الرذيلة (أهل سدوم) بأن يسلم لوط ضيوفه الحسنان، فتلطف حامي الفضيلة (لوط عليه السلام) في الرد عليهم، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ (الحجر: ٦٨) أي: " هؤلاء ضيوفي فلا

تقصدوهم بسوء فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم. " (محمد الصابوني)

وذكرهم بالله ومخوفهم به ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الحجر: ٦٩) أي: خافوا الله أن يحلّ بكم عذابه، ولا تفضحوني بانتهاككم حرمة ضيوفي بالتعرض لهم بالسوء والفحشاء.

تصاعد الحوار، وأخذ يشتد!! واستخدم أهل سدوم شبهة واهية ألا هي أنهم قد اشترطوا عليه بألا يستضيف أحدًا، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الحجر: ٧٠) أي: ألم نمنعك عن ضيافة أحد؟ (١)

وفي محاولة يائسة من لوط لصرفهم عن غيهم عرض عليهم بناته قائلًا: ﴿ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ (هود: ٧٨) أي: هؤلاء نساء الأمة هن

---

(١) قال الرازي: " المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد الناس إذا قصدنا الفاحشة." (محمد الصابوني)

أطهر لكم وأطيب فتزوجوهن، واحذروا أن تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة.

وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ (هود: ٧٨) أي: خافوا الله ولا تفضحوني في ضيوفي، ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ (هود: ٧٨) أي: أليس فيكم رجل خَيْر عاقل يوقف هذه المهزلة القذرة؟! واستفهام لوط استفهام توبيخ وتقريع.

وهذا القول من لوط - عليه السلام - هي شهادة عليهم بأنهم لا يوجد فيهم رجل له مسكة عقل أو خصلة خير بل الجميع سفهاء كفرة أغبياء.

لم يستمر أهل سدوم في هذا الحوار طويلًا وحسموا الأمر سريعًا ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ (هود: ٧٩) أي: أنت تعلم

يا لوط أننا لا رغبة لنا في النساء، وأنت تعلم علم اليقين ما أربنا وغرضنا؟ وهو إتيان الذكور!!

فأعلنوا بفجور وسفاف عن غرضهم الخبيث الرذيل!!

تجمهرت سدوم أمام بيت نبيهم المغلق، وربما صار تدافعًا عند الباب المغلق، هم يرمون كسره وولوج البيت، ولوط يمسك بالباب يمنعهم الدخول.

يا له من موقف عسير الحال أوصل لوطًا أن يقول: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ (هود: ٨٠) أي: لو لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها." (محمد الصابوني) ﴿ أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ ﴾ (هود: ٨٠) أي: ألجأ إلى عشريتي وأنصاري، وجواب لو محذوف تقديره: لأخذت على أيديكم وبطشت بكم.

فقد تمنى لوط لو كان له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم؛ ليحلّ بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الفجور وهذه القذارة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي.** " (رواه البخاري: ٣٣٧٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: " **رحم الله لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد** (يعني الله عز وجل)، **فما بعث الله بعده نبيًا إلا في ثروة من قومه.** " (المستدرك)

قال قتادة: " وذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبيًا بعد لوط إلا في منعة من عشيرته." (محمد الصابوني)

كل ذلك كان يحدث أمام مرأى الملائكة الكرام، وحينما سمع الملائكة تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار، عندئذ كشفوا عن هويتهم، وأعلنوا عن

أنفسهم وطمأنوه: ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ (هود:٨١) أي: قال الملائكة: يا لوط إنا رسل ربك نزلنا لنهلك هؤلاء القوم السوء، فلا تخش منهم ضررًا أو مكروهًا، فلن يستطيعوا الوصول لك بأي حال من الأحوال.

بدء هلاك أهل سدوم:

في هذه اللحظة الفارقة بدء هلاك أهل سدوم المجرمين، فبدئ هلاكهم بطمس أعينهم، فخرج عليهم ملك كريم فضرب وجوههم (يذُكر أن الملك الكريم الذي ضرب وجوههم هو جبريل عليه السلام)، فطمس أعينهم حتى قيل أنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر.

فخرجوا يتحسون الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٧) أي: لما طلبوا من

لوط أن يسلمهم ضيوفه؛ ليفجروا بهم بطريقتهم الخبيثة (إتيان الذكور) طمسنا أعينهم (أي: أعميناها وأزلنا أثرها بالكلية) فتجرعوا مرارة عذابي وإنذري إليكم.

ثم تقدمت الملائكة الكرام إلى لوط - عليه السلام - آمرين له بأن يخرج هو وأهله من آخر الليل ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ (هود: ٨١) أي : أخرج بأهلك من بين أظهرهم ببقية من الليل (وقت السحر)، وأمروه أن يسير خلفهم؛ ليطلع عليهم ﴿ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ (الحجر: ٦٥) أي: كن من ورائهم وسِر خلفهم؛ لتطمئن عليهم. (محمد الصابوني)

وأمروه بألا يلتفوا خلفهم ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ ﴾ (هود: ٨١) أي: لا يلتفت منكم أحد، لئلا يُفزعه مشهد هلاكهم المروع الفظيع!

وفي ذلك دلالة خفية على أن يسارعوا في الخروج من هذه القرية الظالم أهلها، وفيه إشارة – أيضًا – أن عذاب الله إذا حلّ بالقوم المجرمين فقد يصيب المؤمنين.

وأمروهم ﴿ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ ﴾ (الحجر: ٦٥) أي: اذهبوا إلى حيث يأمركم الله بالذهاب إليه، وقد حدد المفسرون ماهية هذه الجهة وهي بلاد الشام وفلسطين بالذات، ولكن تحديدهم هذا يحتاج إلى دليل شرعي.

وفي سرعة خروجهم من القرية، وتوجههم إلى الجهة التي حددها الله لهم، فيه إشارة بليغة للأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله.

واستثنى الوعد الإلهي السابق امرأة لوط ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ ﴾ (هود: ٨١)، أي: لن تنجو امرأتك، وسيصيبها ما سيصيب أهل سدوم؛ لأنها ضارعتهم وشابهتم في الكفر.

لما خرج لوط وأهله من القرية الظالم أهلها، تعين وقوع هلاك أهل سدوم، وكان ذلك في صباح هذا اليوم ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ (هود: ٨١) أي: موعد حلول العذاب الأليم بهم هو صبيحة هذا اليوم.

وقد أعلم الله لوطًا موعد حلول الهلاك وحيًا ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ (الحجر: ٦٦) أي: أوحينا إلى لوط بموعد هلاكهم الذي سيستأصل شأفتهم عن آخرهم، وذلك عند بزوغ أول شعاع يشرق صباح هذا اليوم.

وسبحان الله! جعل الله شروق هذا اليوم إيذانًا لغروب خبث هؤلاء القوم!!

لطيفة: لِمَ أعلم الله تعالى لوطًا بموعد هلاك قومه؟

وذلك لحكم عدة، منها:

-شفاء لصدر لوط من القوم الفاسدين الذين آذوه كثيرًا.

- تأكيد للوط وأهله أن العذاب واقع لا محالة، فليأخذوا

بالأسباب من الخروج ليلًا، والإسراع صوب الجهة المحددة لهم، وعدم الالتفات خلفهم.

فما أن طلعت شمس هذا اليوم حتى جاءهم من الأمر الشديد الذي لا راد له ولا دافع، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ﴾ (هود: ٨٢-٨٣)، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ ﴾ (الحجر: ٧٣)

فكان هلاكهم هلاكًا أليمًا شديدًا حيث أُقتلعت قراهم من قرارهن بكل ما فيها، ثم رفعت حتى بلغت عنان السماء، ثم قلبها الله تعالى، فجعل العالي سافلًا، وأرسل عليهم صيحة مدوية مدمرة، وأعقب ذلك سيلًا من حجارة من سجيل (أي: حجارة نارية شديدة الصلابة والقوة)

تهطل عليهم كالمطر المنضود (أي: المتتابع المستمر)، ووسم (أي: علّم) الله هذه الحجارة، فكانت مسومة عند الله (أي: معلَّمة بعلامة) (١)، وجعل الله مكان قراهم بحيرة مالحة مبالغة في هلاكهم وإهانتهم!!

قال المفسرون: " وقد صار موضع تلك المدن بحرًا أجاجًا يعرف بالبحر الميت؛ لئن مياهه لا تغذي شيئًا من الحيوان، وقد اشتهر باسم بحيرة لوط، والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئًا." (محمد الصابوني)

قال بعض المؤرخين: " إن البحر الميت المعروف اليوم ببحيرة لوط، لم يكن موجودًا قبل هذا الحادث، وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها،

---

(١) قال القرطبي: " الحجارة التي أمطرت على المدن كانت حين رفعها جبريل." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وكلامه – رحمه الله – يخالف ظاهر القرآن، فإرسال الحجارة كان بعد قلب المدن رأسًا على عقب، والله أعلم.

وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر، وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت." (محمد الصابوني)

لطيفة: أشد عقوبة حلّت على الأمم المكذبة كانت عقوبة قوم لوط؛ لئن جريمتهم كانت سابقة خطيرة في تاريخ الإنسانية، فحلّت عليهم عقوبة فريدة في شدتها!!

تنويه:

- ذُكر أن جبريل عليه السلام قد اقتلع قراهم بطرف جناحه من قرارهن، وتحديد الكيفية بهذه الصورة يحتاج إلى دليل شرعي.

- وذُكر أنه لما رفع الجميع إلى عنان السماء، سمعت الملائكة أصوات ديكة قوم لوط ونباح كلابهم، وهذا الكلام ليس في دواوين السنة، وإنما هو كلام بعض التابعين، ولا نعلم إن كان مستندهم الإسرائيليات أو غيرها.

- قال الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨٣) أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه (محمد الصابوني)، وقول الربيع - رحمه الله - السابق لا دليل شرعي عليه.

- وذُكر أن العذاب والهلاك شمل جميع أهل سدوم الحاضرين منهم في الحضر، والغائبين عنها في السفر، حتى النازحين عنها في العرب، وهذا لا دليل شرعي عليه، والقران ذكر عموم الهلاك دون هذا التفصيل ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الحجر: ٦٦)

- قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ (هود: ٨٣) قال ابن كثير: " أي ما هي ببعيدة مما

أشبههم في فعلتهم. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)، وما ذكره فيه نظر؛ لأنه لم نسمع بمثل هذه العقوبات والمثلات قد حلّت على أقوام فعلوا فعلتهم، ومعنى الآية: وهذه القرى المدمرة يا محمد ليست ببعيدة عن قومك الكافرين من قريش، والله أعلم.

تساؤل: الحجارة التي أمطرت بها سدوم من السماء أم الارض؟

قال القرطبي: قوله: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨٣) دليل على أنها ليست من حجارة الأرض. (القرطبي: ٢٠٠٢)

هلكت سدوم جميعًا!! هلكت سدوم أهل الكفر والفجور!! هلكت سدوم التي أضافت الى سجل الإنسانية صفحة ملطخة بالكفر والقذارة المشينة!!

وكان هلاك سدوم آية على قدرة الله على الانتقام ممن خالف أمره، وكذّب رسله، ودليلًا على رحمته بعباده

المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الشعراء: ١٠٣)

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من

قصة

لوط عليه السلام

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة لوط - عليه السلام

ـ

تمهيد:

قصة لوط كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. **ما المقصود ببناته في قول لوط:** ﴿ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ﴾ (هود: ٧٨)؟

اختلف العلماء في المراد ببناته على قولين:

القول الأول: المراد ببناته بأنهن بناته من صلبه، وحُكي ذلك عن قتادة، وأُستدل على ذلك بقوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ (هود: ٧٨) حيث أشار إليهن إشارة الحاضر.

وقد اعترض على ذلك القول بهذا السؤال: هل يجوز للمسلم أن يزوج ابنته للكافرين؟

أجابوا: " لعل زواج المؤمنة من الكافر كان في شريعتهم جائز، وقد كان جائز أول الإسلام بدليل أنه – صلى الله عليه وسلم – زوّج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركًا، وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ ﴾ (البقرة: ٢٢١) (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

القول الثاني: المقصود ببناته نساء أمته، حكى ذلك مجاهد وسعيد بن جبير، وهذا القول هو الصحيح إن شاء الله لعدة أسباب، منها:

- إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد، لا يلق بأهل المروءة، فكيف بأكابر الأنبياء. (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

- إن قولنا هن بناته من صلبه، فهذا يخالف المعقول، حيث أن بناته من صلبه مهما كان عددهن لن يكفي هؤلاء الرجال، بينما نساء أمته ففيهن الكفاية للكل.

أما إضافة لوط نساء الأمة إلى بناته؛ لأنه كان نبيًا لهن فكان كالأب لهن. (١)

تنويه: لا يصح الاعتقاد أن لوط عرض نساء الأمة للرجال ليزنوا بهن، وإنما عرضهن ليتزوجوهن.

---

(١) ذكر القرطبي أقوالًا أخرى: " وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة، ولم يرد إمضاءه، روي هذا القول عن أبي عبيدة، كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا، وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

والصحيح ما أثبتناه، والله أعلم.

٢- الزوجة الصالحة أكبر معين لزوجها:

أكبر معين للداعي في دعوته أهل بيته لا سيما زوجته، فهي مسلاة الأحزان، ومعينة على نوائب الدهر، ومشاق الدعوة، وأعبائها، ومحل سره، ومتنفس روحه!!

لذا سُمي العام الذي توفيت فيه خديجة بعام الحزن، فالزوجة الصالحة أكبر معين لزوجها، ولباس له ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)

إذا تقرر ذلك أدركنا كم كانت معانة لوط عليه السلام، فقريته كانت من أنتن القرى على مرّ التاريخ، إن لم تكن أخبثها على الإطلاق، ثم تأتي زوجته بكفرها وبتلصصها عليه؛ لتكمل المعانة وتزيد المشقة.

وما أصعب أن تأتي المشقة والعسر من الجهة التي هي مظنة التلطيف واليسر!!

فأي أمواج عاتية ضربت لوط، وأي مصائب شاقة تحملها، وأي آلام مضنية تجرعها، لله دره صابرًا محتسبًا!!

٣. زوجة لوط مع الهالكين:

كان مصير امرأة لوط الهلاك مع قومها، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ (هود: ٨١)

قرئت هذه الآية قراءتين:

القراءة الأولى قراءة النصب: وبحسبها يحتمل أن يكون المستثنى من قوله (فأسر بأهلك) أي قيل له: إلا امرأتك فلا تسر بها، ومعنى ذلك: أنها بقيت مع قومها، ونزل بها العذاب والهلاك مثلهم.

والقراءة الثانية قراءة الرفع: وبحسبها يحتمل أن تكون (إلا امرأتك) مستثنى من (لا يلتفت منكم أحد) بمعنى: أنها خرجت مع زوجها وبناتها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفت إلى قومها،

وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها، وألحقها بقومها إذا كانت على دينهم وقد رجح ابن كثير القراءة الأولى.

لطيفة: ما اسم امرأة لوط؟

قال السهيلي: " اسم امرأة لوط والهة، واسم امرأة نوح والغة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وما ذكره السهيلي يحتاج إلى دليل شرعي، والظاهر أن ذلك مأخوذ من الإسرائيليات.

٤. هل يمكن أن تخون زوجة النبي زوجها؟

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم: ١٠)

قد يتساءل المرء: هل يمكن أن تخون امرأة النبي زوجها؟ وهل يمكن أن تقع منها جريمة الزنى؟

" الجواب: إن هذا أمر مستحيل، لا يمكن أن يقع؛ لئن الله – عز وجل – قد حفظ الأنبياء من تلوث العرض، ومن وقوع أزواجهن بالفاحشة؛ لئن ذلك يؤذي سمعة الانبياء الأطهار، ولهذا قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وهذا مذهب أئمة السلف والخلف." (محمد الصابوني)

فما المقصود بالخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾؟

أي: خانتاهما في الدين فلم تُتبعاهما فيه، قال تعالى في قصة الإفك: " لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، حين قال لها أهل الأفك ما قالوا، عاتب الله المؤمنين، وأنب وزجر ووعظ وحذر قال فيما قال: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (النور: ١٥) أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة. "

(ابن كثير: ٢٠٠٢)، وزوجات الأنبياء في ذلك سواء، وأما الكفر منهن فقد يقع، ولا ينقص ذلك من مكانة النبي.

٥. علامة الرجل الرشيد:

" إن من علامة الرجل الرشيد أنه المسدد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين، ويفرج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير وينهي عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة فلهذا قال لوط: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ ﴾ (هود: ٧٨) أي: فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويدفع أهل الشر والبغي. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

٦.أهمية كثرة الأعوان على الخير:

كثرة الأعوان على الخير من الأمور المهمة في مجال الدعوة، والحث على زيادتهم من أمور المطلوبة، ولو كان المعاون من أهل الشر، فإن الله يؤيد الدين بالرجل

الفاجر، وبأقوام لا أخلاق لهم عند الله؛ ولهذا قال لوط: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود: ٨٠)

وبذلك نفهم لماذا أكثر الأنبياء يبعثهم الله في أشراف قومهم؛ ليحصل بذلك من تأييد الحق، وقمع الباطل، والتمكين من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك، واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ (هود: ٩١)

" وكذلك نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بُعث في أشرف بيت في قريش وأعزه، وقد رماه قومه بالعداوة البليغة، وعقدوا المجالس المتعددة في إبطال قوله ودينه، بل في كيفية الفتك به.

ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حدّهم خوفهم من قبيلته، وانظر إلى حالته في تضيقهم عليه بالشعب، وانحياز قبيلته معه مسلمهم وكافرهم، ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك

المكر العظيم، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل؛ ليتفرق دمه بين القبائل، فيعجز قومه عن الأخذ بثأره، ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. " (عبدالرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

٧.ما حكم إطلاق مصطلح (لواط) على فاحشة قوم لوط؟

لا يصح إطلاق كلمة (لواط أو لوطي) على فعل قوم لوط، فلم يرد في القرآن والسنة مثل ذلك المصطلح، ولما ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذه الفاحشة قال: صلى الله عليه وسلم: " **لعن الله من عمل عمل قوم لوط** " (رواه أحمد)، وقال: صلى الله عليه وسلم: " **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.** " (رواه أحمد: (٢٧٣٢)، وأبو داود واللفظ له: (٤٤٦٢)، والترمذي: (١٤٥٦)، وابن ماجه: (٢٥٦١))

فلم يرد – فيما أعلم – أن الرسول قال: لواط أو لوطي.

قال ابن العثيمين: خطأ أن نسميها لواطًا، بل نسميها كما ورد ذكرها في القرآن الكريم.

ومن حيث اللغة: كلمة (اللواط) تعني: الإصلاح، لاط الشيء أي: أصلحه، ولاظ الرجل لواظًا ولاظًا أي عمل عمل قوم لوط.

فخطأ من حيث الشرع واللغة أن نقول هذا لواط وهذا لوطي.

والواحد منا لا يبالي بل ويفخر أن يقال له: محمدي، أي: أنه من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ويأنف الكثير أن يقال له لوطي: نسبة إلى لوط، وسبب ذلك إطلاق هذه التسمية غير الصحيحة على فاحشة قوم لوط.

٨.شناعة جريمة إتيان الذكور:

" هذه الجريمة النكراء غاية في القبح والبشاعة، تعافها حتى الحيوانات، فلا نكاد نجد حيوانًا من الذكور ينزو على ذكر، وإنما يظهر هذا الشذوذ بين البشر،

ومن أجل ذلك نستطيع أن نقول: أن هذا النوع من الشذوذ لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير، وهو انحراف بالفطرة تستوجب أخذ مقترفيها بالشدة. " (محمد الصابوني: ١٩٩٩)

وقد ذكر محمد رشيد رضا جملة من مفاسد هذه الجريمة:

- جناية على الفطرة البشرية.
- مفسدة للشباب بالإسراف في الشهوة لأنها تنال بسهولة.
- مذلة للرجال بما تحدثه من داء الأبنة.
- مفسدة للنساء اللاتي تصرف أزواجهن عنهن، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن.
- قلة النسل بفشوها فإن من لوازمها الرغبة عن الزواج، والرغبة في إيتان الأزواج في غير مأتى الحرث، ولعن فاعل ذلك.
- أنها ذريعة للاستمناء، ولإتيان البهائم، فقصد الشهوة لذاتها يفضي إلى وضعها في غير موضعها،

وإنما موضعها الزوجة الشرعية. (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

قال ابن العثيمين: " هذا أعظم من الزنا وأقبح، فالزنا فاحشة في فرج قد يباح في بعض الأحيان، أما فاحشة قوم لوط فاحشة لا تباح أبدًا.

والله عبر عن الزنى بقولة (فاحشة) في قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٢)، وأما إتيان الذكور فقال عنه (الفاحشة) في قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٨) (محمد العثيمين: ٢٠٠٢)

والعقوبة الشديدة التي حلّت على قوم لوط، لأكبر دليل على شناعة وبشاعة جريمتهم النكراء، حيث اجتمعت عليهم مثلات وعقوبات لم تجتمع على غيرهم من الأمم، وهي: طمس العيون، واقتلع القرى من قرارهن، وقلبها رأسًا على عقب، وإرسال صيحة مدوية

مدمرة، وإمطار حجارة من سجيل منضود عليهم، وجعل محلهم بحيرة مالحة!!

٩.حكم إتيان الذكور:

اتفق العلماء على حرمة إتيان الذكور، وأنه من الكبائر لما ورد من ذم فعله وفاعله، كما في الآيات التي تحدثت عن قوم لوط، نحو قوله تعالى:﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٨)

وقوله صلى الله عليه وسلم: " **لعن الله من عمل عمل قوم لوط** " (رواه أحمد)

وللعقوبة والعذاب الأليم الذي نزل بقوم لوط .

١٠.عقوبة مَن ارتكب فعل قوم لوط في الإسلام:

اختلاف الفقهاء في تقدير العقوبة اللازمة لها على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: هو القتل مطلقاً.

وهو مذهب مالك وأحمد وقول للشافعي، وقد ذهبوا إلى أن حده القتل سواء أكان بكرًا أو ثيبًا فاعلًا أم مفعول به، وهذا القول مروي عن أبي بكر وعمر وابن عباس رضوان الله عليهم، وقول الصاحبين من الحنفية.

وقد استدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: " **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.** " (رواه أحمد: (٢٧٣٢)، وأبو داود واللفظ له: (٤٤٦٢)، والترمذي: (١٤٥٦)، وابن ماجه: (٢٥٦١))

وبإجماع الصحابة على رجم من فعل ذلك، عندما جمعهم أبو بكر الصديق ليرى حكمهم في رجل ينكح كما تنكح النساء.

وقد اختلف أصحاب هذا المذهب في كيفية القتل على أقوال، ذكرها الصابوني:

- تحزّ رقبته كالمرتد وهو مروي عن أبي بكر وعلي.

- يرجم بالحجارة وهو مروي عن ابن عباس، وبه قال: مالك وأحمد.

- يلقى من أعلى شاهق وهو مشهور مذهب مالك.

- يهدم عليه جدار وهو مروي عن أبي بكر الصديق. " (محمد الصابوني: ١٩٩٩)

المذهب الثاني: وهو حده كحد الزنى:

إن كان محصنًا رجم، وإن كان غير محصن جلد، وهذا قول الشافعي، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: " **إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان.** " (رواه البيهقي)

المذهب الثالث: وهو مذهب القائلين بالتعزيز:

وهو مذهب أبو حنيفة الذي ذهب إلى أن إتيان الذكور وإن كان جريمة شنعاء وكبرى وحرامًا، لكنه ليس زنى لفظًا ولا معنى، وعلى ذلك فإن فاعله لا يعاقب حدًّا، وإنما يعاقب عقوبة تعزيزية، ويحبس حتى يموت أو يتوب، وإذا اعتاد ذلك قتله الإمام سياسة لا حدًّا.

والراجح: المذهب القاضي بالقتل.

ما المقصود بالسحاق؟

"هو ما يكون بين المرأة والمرأة، وقد اتفق الفقهاء على أنه ليس فيه إلا التعزيز. " (محمد الصابوني:١٩٩٩)

ذُكر أن نساء قوم لوط هن من فعل ذلك، وهذا لم يرد عليه دليل شرعي.

إيتان البهائم:

الجمهور على أن حده التعزيز، بينما مذهب أحمد في بعض الروايات عقوبته كإتيان الذكور، يقتل الفاعل وتقتل البهيمة لحديث: " **من وجدتموه على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة** "

" ولكن هذا الحديث ضعيف، ولهذا عدل الى أخف الأمرين وهو قتل البهيمة والأدمي يعزر، وقتل البهيمة بسبب أنها حرام جيفة، فإن كانت لغيره وجب على فاعل الجريمة أن يضمنها لصاحبها." (محمد العثيمين: ٢٠٠٢)

إيتان المحارم:

ذكر ابن العثيمين: " الصواب فيه القتل بكل حال سواء أكان محصنًا أم غير محصن. " (محمد العثيمين: ٢٠٠٢)

مسألة:

" قلنا أن الزاني بالمحرمات يقتل على كل حال، فهل المحرمات تحريمًا أبديًا مثل التحريم المؤقت؟

الجواب: لم نقل المحرمات، ولكن قلنا المحارم إلى الأبد، وهن غير المحرمات." **(محمد العثيمين: ٢٠٠٢)**

الخاتمة

قال الوليد بن عبد الملك: " لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط، ما ظنّنت أن ذكرًا يعلو ذكرًا. " (ابن كثير: ١٩٨٧)

هكذا الفطر السليمة النقية تأبى الانحراف عن السوية، التي خلقها الله عليها، ولما كان البشر من مادة وطبائع، ونفوس أمارة بالسوء، حرفهم الشيطان عن الفطرة السليمة السوية النقية إلى الفطر المنحرفة الشاذة الغبية.

فوقعت فاحشة في قوم لوط (أهل سدوم) ما سبقهم إليها أحد من العالمين ألا هي ايتان الذكران وترك النسوان.

وقد جمع أهل سدوم الخبثاء مع هذا الانحراف في الفطرة منكرات أخرى، وهي: الكفر، وقطع الطريق، وإخافة المارة والرفيق، فأرسل الله إليهم نبيه الكريم لوطًا داعيًا إلى التوحيد، ناهيًا عن المنكرات والانحرافات.

وقد سلك معهم لوط في دعوتهم أفضل السبل والطرائق، ولما كان خبث أهل سدوم خبثًا مركبًا ردّوا دعوة نبيهم، وآذوه بالقول والعمل.

وحتى ينفذ قدر الله في قوم لوط الخبثاء، فقدر الله أسبابًا عظيمة؛ ليحنق لوط عليهم فيستعجل العذاب المقدر عليهم.

ومن أهم أسباب حنق لوط عليهم مراودتهم العفنة له في ضيوفه، فاستنصر ربه عليهم، فنصره وحلّ عليهم عذابه الأليم، حيث جاءهم في صورة بشعة طمست أعينهم، ثم اقتلعت قراهم من قرارهن، فجعلت عاليها سافلها، وأُرسلت عليهم صيحة مدمرة، وأُمطروا بحجارة من سجيل منضود مسومة من عند ربك للمسرفين، جعلتهم أثرًا بعد عين، وما هي من الظالمين ببعيد.

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١ - إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتب الصفا، ٢٠٠٢ م.

٢ - إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٣ - عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٤- عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العلمين من المرسلين والأنبياء، مكتبة المنارة، ٢٠١١م.

٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٨٦م.

٤ - محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٥ – محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.

٦ – محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

٧ – محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

٨– محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

٩– محمد علي الصابوني، روائع البيان تسير آيات الأحكام في القرآن، دار الصابوني، ١٩٩٩ م.

١٠ – محمد بن صالح العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستنقع، مركز فجر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢ م.

الباب الثاني

خطيب الأنبياء

شُعيب عليه السلام

مقدمة الباب:

هذا باب خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام، والذي يروي قصة نبي الله الكريم شعيب – عليه السلام – مع قومه أهل مدين ذوي الثراء والنعم والترف، وذوي الكفر وقطع الطرق، وسوء المعاملات وبخس الناس أشياءهم، والصد عن سبيل الله، وقد وقع هذا الباب في فصلين:

الفصل الأول (قصة شعيب عليه السلام) يتحدث عن حال قوم شعيب القبيح، وبعثة الله شعيب إلى مدين، ودعوته لهم بألطف عبارة، وأرشق إشارة، ويذكر الفصل موقف أهل مدين العدائي السيئ من دعوة نبيهم الكريمة، ويختم الفصل بذكر الهلاك الذي حلّ بهم جزاء وفاقًا.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة شعيب عليه السلام) تناول أهم الثمار المستطابة من قصته عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

الفصل الأول

قصة نبي الله

شُعَيب عليه السلام

الفصل الأول

قصة نبي الله شعيب - عليه السلام -

تمهيد:

" ورد ذكر شعيب – عليه السلام – في القرآن عشر مرات، في مواطن متفرقة من سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت. " (محمد الصابوني)

وقد كانت بعثته بعد لوط عليهما السلام قال تعالى: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (هود: ٨٩) ، وقبل رسالة موسى – عليه السلام – على التحقيق؛ لئن الله تعالى ذكر نوحًا ثم هودًا ثم صالحًا ثم شعيبًا ثم أعقب هؤلاء بقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الأعراف: ١٠٣)

قال الصابوني: " قد أخطأ بعض المؤرخين فظن أن شعيبًا كان زمنه بعد موسى بعدة قرون، وهذا ينافي نصّ القرآن، وقد التبس الأمر عليهم بين (شعيب) وبين (شيعا) أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم، فظنوا أن شيعا هو شعيب، ومن هنا جاء الخطأ كما نبه عليه بعض المحققين من العلماء. " (محمد الصابوني)

من قوم شعيب؟

قوم شعيب هم أهل مدين، ومدين قبيلة عربية، كانت مساكن مدين في بلاد الحجاز، مما يلي جهة الشام، قريبًا من خليج العقبة من الجهة الشمالية منه.

" ويقول الطبري: " أن بين مصر وأرض مدين ثمان ليال."، ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن (معان)، وهي جنوب فلسطين. " (محمد الصابوني)

والذي يظهر أنهم كانوا بعد قوم لوط بمدة قريبة، وكان مكان سكناهم قريبًا منهم، فقد كانت مساكن قوم لوط أغوار فلسطين، ونظرًا لقربهم من قوم لوط زمانًا

ومكانًا، علموا بما حلّ بهم من عذاب ونكال، قال تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ (هود: ٨٩) أي: ليس قوم لوط منكم ببعيد لا زمانًا ولا مكانًا.

كان أهل مدين ذوي نعيم ورفاهية، ونعمة وعافية، ولكنهم كانوا كافرين، فقد كانوا يعبدون الأيكة (أي: الشجرة العظيمة الملتفة الأغصان)، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [(١)] (الحجر: ٧٨) أي: كان قوم شعيب ظالمين أنفسهم بكفرهم، واقترافهم المنكرات الداهيات.

فقد فشت في مدين مع كفرها منكرات عظيمة من قطع للطرق، واخافة للمارة والرفيق، وسوء معاملة الناس بخسًا في الكيل والميزان، وغشًا في المعاملات، ونقصًا للناس في أشيائهم، وصدًا عن سبيل الله، وسعيًا لجعل

---

(١) **لِمَ أضاف الله تعالى مدين إلى الأيكة من دون النعم الأخرى؟**

أضاف الله مدين إلى الأيكة ليذكروا نعمة الله عليهم، وخصّ الأيكة بالذات من دون باقي النعم؛ لشرف نعمة الزراعة عليهم، والله أعلم.

الحياة معوجة، وفي الجملة كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

دعوة شعيب:

أرسل الله إلى مدين شعيبًا نبيًا، من نفس القبيلة، يعرفونه، ويعرفون نسبه، ودماثة خلقه.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ ﴾ (الأعراف: ٨٥) أي: أرسلنا شعيبًا نبيًا إلى مدين من نفس قبيلتهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ (الأعراف: ٨٥) أي: قد جاءتكم معجزة تشهد بصدقه بأنه مرسل لكم من الله.

تساؤل: ما بينة شعيب؟

القرآن الكريم لم يذكر لنا ماهية هذه البينة (المعجزة) التي جاء بها كبرهان قاطع على صدقه، ونقول فيها ما قلناه في بينة هود، فلتراجع في قصة هود عليه السلام.

دعا شعيب – عليه السلام – قومه دعوة حارة صادقة بليغة، وأول ما دعاهم شعيب إليه هو عبادة الله وحده ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ (هود: ٨٤) أي: قال لهم شعيب النبي المرسل إليهم: يا قومي أخلصوا الله بالعبادة.

والمتتابع لدعوة الأنبياء يلحظ أن الدعوة للتوحيد هي أساس دعوة جميع الأنبياء لأقوامهم؛ لأنه الأساس المتين في بناء الأمم، وبدونه يستحيل أن ينهض البناء ويقوم.

بعدما دعاهم شعيب لهذا الأساس، بين لهم ما يُصلح حياتهم وينهض ببناء دولتهم، وهي ترك معاملاتهم المالية الجشعة القبيحة، ولما كانت هذه المعاملات المالية مترسخة في قلوبهم، دعاهم لتركها بألطف العبارات، وأرق الكلمات، وأبين النصيحات، فهو خطيب الأنبياء.

قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ (الشعراء: ١٧٧) أي: ألا تتقون الله بترككم ما يسخطه من الكفر والذنوب والمنكرات ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ ﴾ (الشعراء: ١٧٨) ويترتب على ذلك ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ ﴾ (الشعراء: ١٧٩) أي: خافوا الله وأطيعوه ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ﴾ (الشعراء:١٨٠) أي: فدعوتي لكم دعوة خالصة متجردة من كل أطماع الدنيا الزائفة.

بعد هذه المقدمة المقنعة الممتعة بدأ يهدم معاملاتهم المالية الجشعة المتأصلة في نفوسهم معاملة تلو معاملة، فبدأ بتطفيفهم المكيال ونقص الموازين، فقال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ ﴾ (الشعراء: ١٨١) أي: أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان (محمد الصابوني)، وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ﴾ (هود: ٨٤) أي: " إني أراكم في سعة تغنيكم عن نقص الكيل

والميزان، قال القرطبي: أي: سعة من الرزق وكثرة من النعم. (محمد الصابوني)

ونصحهم: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ (الشعراء: ١٨٢) أي: زنوا بالميزان العدل، فقد كانوا يأخذون بالزائد، ويعطون بالناقص.

وقال لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (هود: ٨٦) أي: رزق الله لكم خير من أخذ أموال الناس بالباطل، فقليل الحلال خير من كثير الحرام ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ (هود: ٨٦) شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين (القرطبي: ٢٠٠٢) ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٦) فأنا لست عليكم مراقبًا محصيًا أعمالكم لأثيبكم عليها، فما أنا إلا ناصح أمين.

ثم انتقل إلى هدم عادة مالية ثانية أشد قبحًا من الأولى، وهي بخس الناس أشياءهم، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟

ﭐلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ (الشعراء: ١٨٣) أي: لا تنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن، أو الغصب، أو نحو ذلك. (محمد الصابوني)

" ولنتدبر التعبير القرآني القائل:﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ (الشعراء: ١٨٣) كلمة الشيء تطلق على الأشياء المادية والمعنوية، أي ليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال أو التصرفات الشخصية، ويعني النص تحريم الظلم، سواء كان ظلمًا في وزن سلعة من السلع، أو ظلمًا في تقييم مجهود الناس وأعمالهم، ذلك أن ظلم الناس يشيع في جو الحياة مشاعر من الألم واليأس واللامبالاة، وتكون النتيجة أن ينهزم الناس من الداخل، وتنهار علاقات العمل، وتلحقها القيم، ويشيع الاضطراب في الحياة. " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

ويستكمل النص القرآني تحذيره لهم، فيحذرهم من الإفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

مُفۡسِدِينَ﴾ (الشعراء:١٨٣) أي: لا تفسدوا في الأرض بقطع الطرق، وإخافة المارة، والنهب، والقتل.

وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٤) أي: " خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين، قال مجاهد: الجبلة الخليقة، ويعني بها الأمم السابقين." (محمد الصابوني)

قال السعدي: " فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم بغير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم فقابلوه بشكره." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وحذرهم من مغبة صدّهم عن سبيل الله، فقال:﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ (الأعراف: ٨٦) أي: " لا تجلسون بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل، قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى

شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه، ويقولون: إنه كذاب، فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله." (محمد الصابوني)

ودحض كذبتهم: ﴿ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾ (الأعراف: ٨٦) " أي: تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم، كما يقول الضالون في هذا الزمان: هذا الدين شريعة تعبدية روحية، ولا يعدو أن يكون دعوة دينية مقصورة على مجرد الاعتقاد وإقامة الصلات الروحية بين العبد وربه، فلا علاقة لهذا الدين بشؤون الدنيا السياسة والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وسبب قولهم هذا هو أن هذا الدين المستقيم لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة المعوجة.

واستخدم شعيب في دعوته أسلوبًا دعويًا بليغًا، وهو أسلوب الترغيب والترهيب، فذكرهم بنعم الله، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اذكروا نعمه عليكم، ومنها أنكم كنتم قلة

مستضعفين في الأرض، فأصبحتم بفضله كثرة في العدد، وعزة في الجانب، فهلا شكرتم الله على ذلك!

وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه، ودلهم عليه، فقال: ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ ﴾ (هود: ٨٤) أي: أخاف عليكم إن لم تؤمنوا أن يحلّ بكم عذاب مبين مهلك، لن يفلت منه أحد، ويقصد به عذاب يوم القيامة.

قال القرطبي: " وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف هذا اليوم بالإحاطة بهم، فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وذُكر أن المقصود بالعذاب الذي هددهم به شعيب هو: عذاب النار في الآخرة، وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا، ولا مانع من أن يكون العذاب الاثنين معًا والله أعلم.

ومزج شعيب ترغيبًا وترهيبًا في قولًا واحدًا بديعًا، فقال: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي

رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (هود: ٩٠) أي: استغفروا ربكم من كل الذنوب، وتوبوا إليه توبة نصوحًا.

ولما تمادى قوم شعيب في كفرهم وطغيانهم، صعّد شعيب خطيب الانبياء نبرة حواره معهم، فقابل كفرهم وطغيانهم بوعيد شديد وتهديد أكيد صريح: فقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ (هود: ٩٣) أي: " اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام. " (محمد الصابوني)

وهددهم قائلًا: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ (هود: ٩٣) أي: ستعلمون غدًا مَن الذي سيحل عليه عذاب يهينه ويفضحه؟ وعندئذ ستعلمون من الكذاب الأشر؟

وقال: ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ (هود: ٩٣) أي: " انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم. " (محمد الصابوني)

فكان هذا الخطاب القوي تهديد أكيد، ووعيد شديد بأنهم إن استمروا على طريقتهم وكفرهم، سيحلّ عليهم عذاب يخزيهم في الدنيا، مع ما ينتظرهم من العذاب الأكبر في الآخرة.

وحسن بعد ذلك أن يختم خطابه الشديد بعبارة قوية رنانة، فقال: ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٦) أي: انظروا بقلوبكم، وتفكروا بعقولك، ما حلّ بالأمم السابقة حين عصوا رسل الله لهم، فانتقم الله منهم فاعتبروا بحالهم.

كان شعيب بليغًا في دعوته لقومه، وكان أيضًا فطنًا نابهًا، فقد توقع شعيب سببًا من أسباب الي يمكن بسببها يرفض قومه دعوته، وهو بغضهم ما جاء به: فقال: ﴿

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ (هود: ٨٩)

أي: لا يحملنكم مخالفتي، وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالتكم، فيحلّ عليكم من العذاب والنكال، نظير ما حلّ بنظرائكم من قوم نوح وهود وصالح ولوط.

قال الحسن: " المعنى: لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار. " (محمد الصابوني)

لله درك يا شعيب ناصحًا صادقًا أمينًا!

موقف أهل مدين السيئ من دعوة شعيب:

" استغرب قوم مدين من منطق شعيب، ودعوته، كيف يأمرهم بعبادة الله وحده، وترك عبادة الآلهة التي ورثوها عن الآباء، ثم ما شأن العبادة ببيعنا وشرائنا، وكافة معاملاتنا؟!" (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

فقالوا هزئيين ساخرين: ﴿ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [١] (هود: ٨٧)

أي: أتأمرك صلاتك أن نترك عبادة الأصنام؟!

واستخفاف أهل مدين بصلاة شعيب مقصود، لما في الصلاة من خطورة على تعديل الحياة التي يبغونها عوجًا.

بهذا المنطق الهزء الساخر قابل قوم مدين خطاب نبيهم، ثم الثانية الأكثر غرابة، معاودتهم يتساءلون بدهشة ساخرة ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ (هود: ٨٧) أي: أصلاتك تأمرك أيضًا أن نترك معاملاتنا المالية؟!

فقصدوا بسؤالهم لشعيب الهزء والسخرية والتهكم لا حقيقة الاستفهام. " (عبد العزيز عتيق: ٢٠٠٠)

---

(١) قال الصابوني: " وقد يراد بالصلاة الدين، والمعنى: أدينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة؛ لأنها أظهر شعائر الدين. " (محمد الصابوني)

ظنّ قوم شعيب أن في تساؤلهم هذا قمة في الذكاء؛ لينكروا أن تكون هناك علاقة بين سلوك الناس وتعاملهم واقتصادهم والدين.

وهذه المحاولة للتفريق بين الحياة وبين الإسلام، هي محاولة قديمة قِدَم عمر قوم شعيب، لقد أنكر أهل مدين أن يتدخل الدين في الحياة اليومية، وسلوكهم واقتصادهم، وطريقة إنفاقهم لأموالهم بحرية، هذه حرية الإنسان الشخصية، وهذا ماله الخاص!! ما الذي أقحم الدين على هذا وذاك؟!

" هكذا فهم قوم شعيب للإسلام الذي جاء به شعيب، وهو لا يختلف كثيرًا أو قليلًا عن فهم عديد من الأقوام في زماننا الذي نعيش فيه، ما للإسلام وسلوك الإنسان الشخصي، وحياتهم الاقتصادية، وأسلوب الانتاج وطرائق التوزيع، وتصرف الناس في أموالهم كما يشاءون؟ ما للإسلام وحياتنا اليومية؟ " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

بعدما بينت مدين فهمها المعوج عن الدين الذي جاء يدعو له شعيب، عاودوا الاستهزاء والسخرية بشعيب

فقالوا: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ (هود: ٨٧) أي: لو كنت حليمًا رشيدًا حقًا، لما قلت هذه المقالة.

والوصف الذي وصفوه لشعيب متحقق من حيث الواقع، وإن كانوا لا يعتقدونه، وإنما قالوه تهكمًا.

كظم شعيب غيظه عليهم، وأدرك أن قومه يسخرون منه لاستبعادهم تدخل الدين في الحياة، فزادهم رقة في الجواب لعلهم يتذكرون ويرجعون، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ (هود: ٨٨) أي: قال لهم شعيب: أخبروني إن كنت على برهان من ربي وهو الهداية والنبوة (محمد الصابوني) ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ (هود: ٨٨) أي: أعطاني الله أصنافًا من المال.

قال الزمخشري: " والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من

ربي، وكنت نبيًا على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟! " (محمد الصابوني)

وقال متلطفًا: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ (هود: ٨٨) أي: لست أنهاكم عن أمر وآتيه، إنما يوافق قولي عملي، وما آمركم به ألزم نفسي أولًا ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ (هود: ٨٨) أي: لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم، وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي.

وهذا الإصلاح هو المعنى الرئيسي والمضمون الحقيقي لدعوة الأنبياء، إصلاح للقلوب بتحقيق التوحيد الخالص لله، وإصلاح للعقول بإزالة حجب الجهل بالله، وإصلاح للحياة بجعلها مستقيمة سوية.

ولما كان قول شعيب السابق عن الإصلاح أقرب إلى تزكية النفس، دفع شعيب المتواضع عن نفسه ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ (هود: ٨٨) أي: ما

يحصل لي من توفيق لقول الخير والعمل به، إنما هو بمعونة من الله وتأييده بدون حول مني ولا قوة.

ثم ختم نصيحته المشفقة المخلصة بـ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨) أي: على الله اعتمادي في كل أموري وأحوالي، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة.

لطيفة: لِمَ ختم شعيب نصيحته السابقة بالتوكل على الله والإنابة إليه؟

قال السعدي: " لأنه بهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال تعالى: فاعبده وتوكل عليه، وقال: إياك نعبد وإياك نستعين." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

مدين تفننت في كيل الاتهامات لشعيب، فمرة اتهموه بأنه مغلوب على عقله بالسحر ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥﴾ (الشعراء: ١٨٥) أي: " ما أنت إلا من المسحورين، سُحرت كثيرًا حتى غُلبت على عقلك." (محمد الصابوني)

ومرة ثانية اتهموه بالكذب في دعواه ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾ (الشعراء: ١٨٦) أي: لا نشك أنك من الكذابين الذين يقولون على الله غير الحق.

ومرة ثالثة اتهموا شعيبًا بعدم وضوح دعوته، فقالوا: ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١)

" أي: قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به، قال الألوسي: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف: " **أنه خطيب الأنبياء**. " (محمد الصابوني)

وأثاروا شبهة واهية ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (الشعراء: ١٨٦) أي: أنت شخص عادي مثلنا، فَلِمِ أُخْتُصت النبوة بك من دوننا؟ وفينا من هو أشرف منك!

رأت مدين أن أسلوب القمع والتهديد لم يثنِ شعيب عن دعوته، فغيرت من أسلوبها مع شعيب، فتحولت من

السخرية والاستهزاء إلى التهديد بالعذاب والتلويح باستخدامه، فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ ﴾ (هود: ٩١) أي: " لا قوة لك ولا عزّ فيما بيننا." (محمد الصابوني)، وقال السدي:" وحيدًا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا." [(١)] (القرطبي: ٢٠٠٢)

مدين عدّت شعيبًا ضعيفًا بمقياسهم؛ لئن أكثر أتباعه من الفقراء المغلوبين على أمرهم، أما أشراف القبيلة ورؤساؤها فليسوا بأتباعه، ولعمرك هذا مقياس البشر الناقص، فمتى كانت القوة بالرجال أو المال أو غير ذلك من قوى الدنيا؟ إنما القوة قوة الله وبيد الله، والله مع الأنبياء بنصره وتأييده ومعيته.

" إن قوم شعيب قد أساءوا تقدير حقيقة القوى في هذا الوجود، فإن الله وحده العزيز، والمفروض أن يدركوا ذلك، المفروض ألا يقيم الإنسان وزنًا في الوجود لغير

---

(١) ذكر المفسرون أقوالًا في المقصود بضعيف، وهي: أن شعيب كان ضعيف البصر، وقيل: كان أعمى، وقيل: ضعيف البدن، وهذه أقوال غير صحيحة، والصواب ما أثبتناه، والله أعلم.

الله، ولا يخشى في الوجود غير الله، ولا يعمل حسابًا في الوجود لقوة غير الله، إن الله هو القاهر فوق عباده. " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

صعّدت مدين من نبرة تهديدها لشعيب، فقالوا: ﴿ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ ﴾ (هود: ٩١) أي: " ولولا جماعتك لقتلناك رميًا بالأحجار." (محمد الصابوني)

وقالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾ (هود: ٩١) أي: العزيز علينا يا شعيب قبيلتك لا أنت، وليس لك قدر في قلوبنا، ولا احترام في نفوسنا، حتى نمتنع من رجمك، إنما تركناك احترامًا لقبيلتك؛ لأنهم من أهل ديننا.

تعجب شعيب من سفاهة قومه يدعوهم إلى الخير، ويقابلوه بالشر، فقال متأسفًا: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٩٢) أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي، وتراعوني بسببهم، ولا تخافون عذاب الله، ولا تراعوني لأني رسول الله.

لطيفة: ما المقصود بـ ﴿أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (هود: ٩٢)؟

أي: أصار رهطي في قلوبكم أعز عليكم من نبي الله، ولو كان قولهم على معنى ما عززت علينا لما كان الجواب مطابقًا.

وأنبهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ (هود: ٩٢) أي: " نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه، وهذا مَثَلٌ، قال الطبري: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي: تركها ولم يلتفت إليها." (محمد الصابوني)

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ (هود: ٩٢) أي: إن ربي عالم بما تعملون، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

لطيفة: لِمَ لَمْ يعلق شعيب على قولهم: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١)؟

لم يعلق شعيب على قولهم؛ لئن كلامه بين واضح لا يحتاج إلى شرح، فغفل شعيب عن الردّ عليهم استهزاء بقولهم، وكأن كلامهم هذا في حكم العدم لمخالفته الواقع.

وقد أطال شعيب القول في دعوه قومه باذلًا لهم غاية النصح، ولكنهم لم يزدهم ذلك إلا تماديًا في البغي والضلال، اللهم إلا نفرًا منهم استجابوا لدعوة شعيب، وحتى هؤلاء لم يسلموا من أذى قومهم لهم، حيث هددوهم بإخراجهم مع شعيب من قريتهم عقابًا لهم على إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ (الاعراف: ٨٨)

ويبدو أن مدين قد ضاقت ذرعًا بدعوة شعيب، لا سيما بعد ازدياد عدد المؤمنين بها رغم كل محاولاتهم للتضيق عليها، فاجتمع رؤساؤهم وأشرافهم لمناقشة أمر شعيب الخطر، فخرجوا من اجتماعهم بنهج جديد في

التعامل مع شعيب وأتباعه المؤمنين، وهو التهديد بالطرد، والتلويح بالتشريد في البلاد.

فخيروه بين خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الطرد والتشريد في البلدان، أو العودة إلى الكفر واتباع ملة الآباء والأجداد!

فماذا يختار شعيب؟!

انتصب خطيب الأنبياء قائلًا: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨) أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن والعودة في ملتكم، ولو كنا كارهين ذلك، والاستفهام للإنكار.

وقال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله من شره، وهدانا للإيمان والتوحيد أننا نكون بذلك أفاكون مختلقون على الله أعظم الكذب.

وقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: فلا يمكننا، ولا يمكن غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: أحاط علمه بكل شيء من الأشياء ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اعتمدنا عليه وهو كافينا وحسبنا.

وهذا الكلام من شعيب ليقطع أي بصيص أمل لدى مدين في انتكاس شعيب، والعودة إلى دينهم، لله دره نبيًا كريمًا!!

هلاك قوم شعيب:

استمر الصراع مشتعلًا حادًا بين شعيب وقومه الكافرين، لا سيما الرؤساء والأشراف منهم، وقد ظهر لشعيب جليًا أن مدين صار لا أمل فيهم، فقد جاهروا بالعداء الشديد لدين الله المستقيم، فقد توعدوا شعيبًا

بالرجم، ثم هددوه بالطرد والتشريد، وأخيرًا سخروا مما توعدهم به، فقالوا مستهزئين ساخرين: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الشعراء: ١٨٧) أي: أنزل علينا ما تهددنا به من العذاب، وليكن قطعًا من السماء ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (الشعراء: ١٨٧) أي: إن كنت حقًا صادقًا فيما تتوعدنا به، قالوا ذلك مبالغة في الاستهزاء والتكذيب.

تساؤل: كيف يمكن للإنسان أن يطلب لنفسه الهلاك؟!

قال الرازي: " إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه." (محمد الصابوني)

عندئذ استنصر شعيب ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه من عذاب، فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الأعراف: ٨٩)

أي: " احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم، وأنت خير الحاكمين." (محمد الصابوني)

قال السعدي: " وفتحه لعباده نوعان: فتح العلم بتبين الحق من الباطل ...، والفتح الثاني: فتحه بإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وإن تعجب فعجب قول مدين بعد هذا الدعاء عليهم من نبيهم، فقد صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأعراف: ٩٠) أي: " قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتبعتم شعيبًا وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذًا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى!" (محمد الصابوني)

يا لسخف عقولهم نبيهم يستنصر ربه عليهم، وهم يصرون على استبدال الهلاك بالنجاة!

خرجت دعوة شعيب عليهم، ومن سنن الله ألا يرد دعاء رسله لا سيما إذا استنصروه على الذين يجحدونه، فأهلك الله تعالى مدين.

وكان هلاكهم هلاكًا أليمًا شديدًا، بدأ بأن سلط الله عليهم الحرّ، وبعدما أخذ منهم كل مأخذ، أنشأ الله لهم ظُلة (أي: سحابة)، فاجتمعوا تحتها، للفرار من شدة الحرّ، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله عليهم ترميهم بشرر ولهب كالقصر، فأهلكتهم احتراقًا كما يحترق الجراد في القدر ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ (الشعراء: ١٨٩)

ما المقصود بيوم الظلة؟

يوم الظلة: هو اليوم الذي أنزل فيه الله القادر المنتقم العذاب على مدين، والظلة : سِمة ذلك اليوم، قال الطبري: " الظلة سحابة ظللتهم، فلما تتاموا تحتها، التهبت عليهم نارًا وأحرقتهم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وكان يوم الظلة يومًا من أيام الله الشديدة العذاب على الكافرين؛ لذا قال تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾ (الشعراء: ١٨٩) أي: عذاب يوم هائل مشهود فظيع.

وأثناء هذا الموقف المهول، حيث تلتهم النار أجسادهم، وهم يفرون منها فرار الغنم من القسورة، إذ بالأرض ترجف بهم رجفة شديدة مدمرة، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: حصدتهم زلزلة واحدة عظيمة.

وفوق ذلك وتلك عمتهم من فوقهم صيحة مدوية مهلكة ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ (هود: ٩٤)، أي: " وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب." (محمد الصابوني)

فيا لشدة عذابهم!! نيران تلتهم أجسادهم، ورجفة تزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وصيحة تدوي من فوق

رؤوسهم!! فأُزهقت أرواحهم وخمدت حركاتهم ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأعراف: ٩١) أي: " فأصبحوا ميتين جاثمين على الركب." (محمد الصابوني)

اجتمع على مدين أنواع من العقوبات، وصنوف من المثلات، وأشكال من البليات، لما اتصفوا به من قبيح الصفات جزاء وفاقًا.

حلَّ بمدين عذاب مهول، حتى أنه يخيل للناظر إلى مصرعهم كأنهم لم يقيموا في نعمة قط قال تعالى: ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ ﴾ (هود: ٩٥) أي: كأنهم لم يقيموا في ديارهم لحظة واحدة منعمين آمنين.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأعراف: ٩٢)

قال القرطبي: " وهو مبلغة في الذم والتوبيخ ...، ولما قالوا: من اتبع شعيبًا خاسر قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول." (القرطبي: ٢٠٠٢)

هلكت مدين فسحقًا لها ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (هود: ٩٥) قال الطبري: " أي: ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

عمّ الهلاك أهل مدين، ولم ينج منه إلا شعيب ومن معه من المؤمنين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ (هود: ٩٤) أي: لما جاء الأمر بهلاك مدين نجينا شعيبًا والمؤمنين برحمة منا.

رأى شعيب مصرع قومه، فنعاهم إلى أنفسهم متأسفًا، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ٩٣) قال ذلك لشدة حزنه عليهم؛ لأنهم عصوا أمره ولم يتبعوا نصحه ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٩٣) أي: كيف

أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه، قال الطبري: " أي: كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

شعيب عليه السلام

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة شعيب

- عليه السلام -

تمهيد:

قصة شعيب كغيرها - من قصص الأنبياء والمرسلين - ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. خطورة التطفيف في المكاييل والأوزان:

برزت في قصة شعيب قضية من قضايا البيوع وهي التطفيف، والمراد بالتطفيف: البخس في الميكال والميزان إما بالازدياد عند الاقتضاء من الناس ﴿ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ ﴾ (المطففين: ٢) أي: إذا أخذوا من الناس الكيل يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ (المطففين: ٣) أي: " إذا كالوا للناس أو وزنوهم لهم ينقصون الكيل والميزان." (محمد الصابوني)

وقد يقال: لِمَ ذكر الله تعالى هذه القضية في قصة شعيب؟

ذكر الله تعالى هذه القضية في قصة شعيب؛ لئن هذه القضية، وإن كانت من قضايا البيوع، فإنها متعلقة بالإيمان بالله وثمرة من ثماره، فليس الدين كما يصوره بعض الناس تلفظًا بكلمة التوحيد وحسب، إنما الدين منهج حياة للناس.

ولخطورة التطفيف بهذا المعنى توعد الله تعالى مرتكبه بالهلاك والدمار والعذاب، قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ (المطففين: ١) أي: العذاب الشديد لهؤلاء المطففين في الآخرة.

والمتأمل في المطفف يجده في بخسه المكيال والميزان يقتطع شيئًا يسيرًا بغير حق، ولكن هذا الشيء المقتطع من حقوق الناس جعله الله سببًا في خسارته الدنيا قبل الآخرة.

وقد يقال: أليس من الإجحاف والظلم مقابلة هذا الذنب البسيط التافه بذاك العقاب الشديد المروع؟

نعم، ليس في ذلك ظلم أو إجحاف، فمن تجرأ على أخذ شيئًا تافهًا يسيرًا يتجرأ على أخذ الشيء العظيم النفيس الكثير، ومن أحسن من الله حكمًا.

وقد وقعت مدين في هذه اللوثة الأخلاقية، فكانوا يطففون في المكيل والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ولا يعطونهم حقهم، وربما عدّت مدين هذا العمل منهم

أنه مهارة ودهاء في البيع والشراء، لكنه في الحقيقة رذيلة تمس القيم والمبادئ الإنسانية، ولا تكون مثل هذه الأخلاق الخسيسة غالبًا إلا في ظل غياب الإيمان بالله؛ لذا ارتكبت مدين هذه اللوثة الأخلاقية، وكانت ومن أحد الأسباب التي أهلكتهم.

٢. أبغض الناس إلى الله:

يبغض المعصية الواقعة ممن لا رغبة فيها، ولا داعي إليها، أكثر من بغضه للمعصية الواقعة ممن له رغبة فيها، وله داعي إليها، وإن كانت قبيحة من كليهما.

جاء في **حديث الثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم.** (رواه النسائي: (١٣١٥) وأحمد: (١٣٥٥))، فقد جعل الحديث هذه الخصال المذمومة في هؤلاء الثلاثة أشد مذمة، وأكثر نكرة من غيرهم، لضعف الداعي للمعصية عندهم.

ومن الخصال المذمومة التي ذكرها الحديث الغني الظلوم، وسبب كره الله له أنه قد توفرت له أسباب القوة والتمكين من النعمة والمال، فليس بحاجة إلى الظلم.

وقوم شعيب كانوا بخير وأصحاب مال ونِعَم، فكانت معصيتهم وهي سلب أموال الناس ظلمًا وعدوانًا أقبح من غيرهم.

قال شعيب موبخًا لهم: ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ ﴾ (هود: ٨٤)

٣. خطورة التشوف لما في يد غيرك:

الدافع الأبرز لأهل مدين على سلبهم أشياء الناس بغير حق، هو تشوفهم وتتطلعهم لما في أيدي الناس؛ لذا نبهم نبيهم شعيب - عليه السلام - على أهمية الرضى بما قسمه الله لهم، وقصر النظر على ما في أيديهم من غير تطلع إلى ما عند غيرهم.

قال شعيب لهم: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ٨٦) فنبههم أن يقصروا نظرهم على رزق الله الذي في أيديهم، وذلك خير لكم من تطلعكم وتشوفكم لما في أيدي غيركم.

" قال أعرابي: رأيت جارية حسناء الساعد فقلت: يا جارية، ما أحسن ساعدك! فقالت: أجل، لكنه لم تختص به، فغض بصر جسمك عما ليس لك؛ لينفتح بصر عقلك فترى ما لك. " (الجاحظ: ٢٠١٠)

٤. الحرية هي الالتزام بالشرع:

الإنسان في حركاته وسكناته ومعاملاته تحت حكم الشرع، وادعاء الحرية في ذلك إنما مذهب باطل مردود.

ومذهب الإباحيين المتحررين الداعين إلى إبطال أحكام الدين، وجعل الحياة تسير وفق أهوائهم الرديئة يشبه إلى حد كبير مذهب أهل مدين.

فعندما أنكر عليهم شعيب – عليه السلام – معاملاتهم الظالمة ردوا عليه: ﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ ﴾ (هود: ٨٧)

٥. بغض الشيء السبب الأساسي لعدم فهمه:

علل أهل مدين عدم اتباعهم لشعيب بعدم فهمهم لدعوته ﴿ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١)، فما الذي منع مدين من فهم شعيب؟

قد يكون المانع بسبب نقص عقول مدين أو صعوبة دعوة شعيب، أو غير ذلك.

ولكن السبب الحقيقي الكامن وراء عدم فهم مدين لدعوة شعيب، هو بغضهم لدعوته ونفورهم منها.

٦. أهمية موافقة القول العمل:

موافقة القول العمل من أدعى أسباب قبول النصح والتذكير، وضد ذلك صفة مردودة ذميمة شنعها الله تعالى على علماء بني إسرائيل وخطبائهم في آخر زمانهم، حين تلبسوا بها قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة: ٤٤)

وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " **يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه** (أي: تخرج أمعاؤه من بطنه)، **فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.** " (رواه البخاري: (٣٢٦٧) ومسلم واللفظ له: (٢٩٨٩))

" وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ (هود: ٨٨) " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال ابن عمر: ما حمل رجل حملًا أثقل من المروءة، فقال له أصحابه: صف لنا ذلك! فقال: ما له عندي حدّ أعرفه إلا أني ما استحييت من شيء قط علانية إلا استحييت منه سرًّا.

ولله در الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا	أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

٧. وما توفيقي إلا بالله:

يرجع كثير من الناس توفيقهم ونجاحهم في أعمالهم إلى أسباب عدة، لعل أكثرها دورانًا على الألسنة ما قاله قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ (القصص: ٧٨) أي: " إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب." (محمد الصابوني)

فأرجع تفوقه الى ما يمتلكه من مواهب وقدرات، ولعمرك هذا في القياس لمنكر قبيح، فالتفوق والنجاح في أي عمل يقوم به الإنسان مرجعه وسببه الحقيقي هو توفيق الله له، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ (هود: ٨٨)

٨. الجزاء من جنس العمل:

من أعظم دعائم العدل معاقبة المذنب والمعتدي بمثل ما اعتدى به، حذو القذوة بالقذوة، وقد سير الله هذه

الدعامة في عقابه للأمم الكافرة، فأهلك مدين بعقوبات ثلاث جزاء وفاقًا، لما اقترفوه من جرائم، فلما أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالطرد من قريتهم أو العودة في ملتهم، عاقبهم الله بالرجفة، فقابل الإرجاف بالرجفة.

ولما تنقصوا واستهزؤوا بشعيب بقولهم: ﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ (هود: ٨٧)

فعاقبهم بالصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم، وعمهم بالظُّلة وذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الشعراء: ١٨٥ – ١٨٨)

والجزاء من جنس العمل!

٩. هل أصحاب الأيكة أمة غير أهل مدين؟

ذكر قتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة غير أهل مدين (ابن كثير: ٢٠٠٢)، واستدلوا على ذلك بأمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (الشعراء: ١٧٦ – ١٧٧)، فلم يقل أخوهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا ﴾ (العنكبوت: ٣٦)

الثاني: ذكر الله أن عذاب أصحاب الأيكة يوم الظلة، وذكر عذاب مدين الرجفة أو الصيحة.

والصواب أنهما أمة واحدة – إن شاء الله – قال ابن كثير:

" الجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

" وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال: " وأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام " **أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا النبي عليه السلام.** "

فإنه حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه، والأشبه أنه من كلام عبدالله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك

من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله اعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

١٠.بديعة قرآنية:

حكى الله تعالى لنا ما قاله المعاندون من ثمود لنبيهم صالح، الذي أمرهم بعبادة الله وحده، وحذرهم نقمته قالوا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤)

أما قوم مدين فهذه مقالتهم لشعيب ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (الشعراء : ١٨٥ – ١٨٦)

قال فضل عباس: " فنحن أمام آيتين متحدتين في الجواب: ذُكر حرف العطف في إحداهما، ولم يذكر في الأخرى، فما هو السر البياني يا ترى؟" (فضل عباس وسناء عباس)

يرى الألوسي: "أن سبب زيادة حرف الواو يرجع إلى أن شعيبًا – عليه السلام – كان خطيب الأنبياء عليهم السلام، فأحب القوم أن يجاروه فيما وهب من قول فزادوه هذه الواو." (فضل عباس وسناء عباس)

وقال الكرماني: " أن شعيبًا زاد في الحديث، فزادوا له في القول، وأن صالحًا قلل، فقللوا له." (فضل عباس وسناء عباس)

قال فضل عباس: " كلمة (المسحرين) لها معنيان: يمكن أن تفسر بالمسحورين الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم.

ويمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورئة يأكلون ويشربون، ومن هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " **توفي الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو بين سحري ونحري.**" (رواه مسلم: ٢٤٤٣) (فضل عباس وسناء عباس)

قال فضل عباس: " والذي نراه هنا التفضيل فما قاله قوم صالح – عليه السلام – قصد به هذا المعنى

الأخير، وهو المسحورين (بشر يأكلون ويشربون)، وما قاله قوم شعيب عليه السلام قصد به المعنى الأول أي المسحورين (الذين أصيبوا بمس واختلط الامر عليهم).

وبناء على ذلك حذف قوم صالح حرف الواو؛ لئن معنى الجملتين واحد إنما أنت بشر تأكل وتشرب، وما أنت إلا بشر مثلنا، فالجملة الثانية تؤكد الأولى، فبين الجملتين كمال اتصال؛ لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما؛ لئن العطف يقتضي التغاير.

أما ما قاله قوم شعيب ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾ فكلمة (المسحورين) يجب أن تفسر بالذين مسهم الشيطان واختلط الأمر عليهم، وهذا يختلف عن كونهم بشرًا، فقوم شعيب ألصقوا بنبيهم تهمتين كونه مسحورًا أولًا، وكونه بشرًا ثانيًا.

ولا شك أن كلا من التهمتين متغايرين؛ لذا توسطت واو العطف؛ لئن العطف يقتضي التغاير كما قلنا، ذلكم

هو الإعجاز البياني في الآية." (فضل عباس وسناء عباس)

" وبقى نوع من الإعجاز، وهو الإعجاز التاريخي، وهو اتهمت الأقوام الغابرة أنبياءهم بتهم منها السحر، وتهمة السحر لم تكن معروفة عند الأنبياء الأول، وإنما كانت متأخرة، وكأن قضية السحر لم تكن مشهورة عند القبائل الأولى قوم نوح وعاد وثمود؛ لذا لا يمكن أن نفسر كلمة المسحورين التي قالها قوم صالح بمن أصابه السحر؛ لئن السحر لم يكن معلومًا لهم، فإن السحر ظهر متأخرًا، وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومدين؛ لذا كان السحر معلومًا لهم معروفًا عندهم." (فضل عباس وسناء عباس)

١١.لطيفة بيانية:

قالت مدين لشعيب ﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾ (الاعراف: ٨٨)

قال الدرويش: " إذا كانت (عاد) على معناها الأصلي، فكيف يحسن أن يقال (أو لتعودن) أي: ترجعن إلى حالكم الأولى مع أن شعيب عليه السلام لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم؟

وقد أجيب عن هذه الشبهة بأمور:

١ – أن هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس والإبهام على العموم بأنه كان على دينهم وفي ملتهم.

٢ – أن يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته، وهي السكوت؛ لأنه قبل أن يبعث يخفى إيمانه، وهو ساكت.

٣ – تغليب الجماعة على الواحد؛ لأنهم لما أصبحوه مع قومه في الإخراج أجروا عليه حكم العود إلى الملة تغليبًا لهم عليه.

على أن استعمال (عاد) بمعنى (صار) لا يستدعي العود إلى حالة سابقة، بل العكس من ذلك، وهو الانتقال من حالة سابقة إلى حال مؤتنفة، وحينئذ تندفع الشبة تمامًا.

وثمة وجه لطيف فني لردّ الشبة ليس بعيدًا، وهو أن تبقى (عاد) على معناها الأصلي، وهو أن يكون الكلام في وادي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧)

والإخراج يستدعي دخولًا سابقًا فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان المترعرع على ذراه لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، كان

تعبيرًا عن السبب بالمسبب لإقامة حجة الله على عباده."
(محيي الدين الدرويش : ٢٠٠١)

الخاتمة

عاشت مدين عيشة هنيئة مريحة تجرى عليها نعم الله تترى، فكفرت بنعم ربها، وآذت خلقه.

فأرسل الله اليهم رجلًا منهم هو شعيب عليه السلام، نبيًا كريمًا، داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فدعهم إلى خلع الأنداد والأصنام، وعبادة الله وحده لا شريك له، وبعد أن أسس هذا الأساس دعاهم لما يصلح حياتهم وهو نبذ عاداتهم القبيحة من: قطع طرق، وإخافة مارة، وتطفيف للمكاييل والموازين، وبخس أشياء الناس، وصد عن سبيل الله.

دعا شعيب قومه لذلك دعوة غاية في اللطافة والبلاغة، فهو خطيب الأنبياء، فقابل أهل مدين الكفرة المجرمين دعوته اللطيفة البليغة بالسخرية والاستهزاء، ثم بالتهديد فالوعيد بالقتل وأخيرًا بالتشريد في البلاد!

وتجرؤوا على وعيد الله بالهزء والسخرية، فاستحقوا دعوة شعيب عليهم بتعجيل ما سخروا به من عذاب.

فسلط الله عليهم الحرّ، ولما اشتد بهم الحر وقيظه، أرسل إليهم سحابة عظيمة، ما أن رأوها استبشروا بها استبشارًا عظيمًا، فاندفعوا إليها اندفاعًا؛ لتظلهم من لفح الحرّ، فكانت كأنها ظلة لهم، ولما تكاملوا تحتها إذ بها عذاب أليم، ترميهم بشرر كالقصر العظيم!

وأثناء هذا الموقف المهول إذ بالأرض ترجف بهم رجفة شديدة مدمرة، وأتتهم من فوقهم صيحة مدوية مهلكة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فبعدًا لمدين كما بعدت ثمود!!

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١ – إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٢ – إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٣ – عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٣- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٠ م.

٤ – عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، مكتبة دار المنارة، ٢٠١١م.

٥- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠ م.

٦- فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

٧- محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٨ - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.

٩- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

١٠ - محمد على الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

١١ - محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

١٢- محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١ م.

الباب الثالث

نبي اللّه الصابر

أيوب عليه السلام

مقدمة الباب:

هذه باب نبي الله الصابر أيوب النبي عليه السلام، الذي أبتلي بالخير فشكر، ولما ابتلي بالشرّ صبر، حتى صار مضربًا للمثل: صبرًا كصبر أيوب!

وقد حاولت في هذا الباب أن أوضح سيرة هذا النبي الصابر، وذلك من خلال فصلين:

الفصل الأول (قصة أيوب عليه السلام) وقد تحدث عن ابتلاء أيوب في ماله وأهله وبدنه، وعدد الفصل النعم التي أعطاها الله لنبيه أيوب جزاء لصبره واحتسابه، وناقش الفصل قضية حنث يمينه، وخُتم الفصل بالتحذير من الإسرائيليات التي شوهت قصته.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة أيوب عليه السلام) تناول أهم الفوائد المستطابة من قصته، فصلى الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الفصل الأول

قصة نبي اللّه

أيوب عليه السلام

الفصل الأول

قصة نبي الله أيوب – عليه السلام –

تمهيد:

أيوب نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن أصفياء الله المختارين، وقد ذكره الله في كتابه الكريم ذكرًا حسنًا، مثنيًا عليه بالخصال الحميدة عمومًا، وبالصبر على البلاء خصوصًا.

" فقد ذكر اسم أيوب في القرآن أربع مرات، في سورة النساء، والأنعام، والأنبياء، وفي سورة ص ذكره الله في عداد مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلًا، وهو من ذرية إبراهيم – عليه السلام – على وجه التحقيق لقوله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ

وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٨٤)" (محمد الصابوني)

ابتلاء أيوب – عليه السلام – وصبره:

قصّ القرآن خبر ابتلاء أيوب وذلك في موضعين:

الموضع الأول: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

فما الضر الذي أصابه؟

قال الشنقيطي: " الضر الذي مسّ أيوب عليه السلام، ونادى ربه ليكشفه عنه، كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)، وكان هذا الابتلاء ابتلاء شديدًا، حيث يقال: لم يصب أحدًا من الخلق مثله.

" فقد كان أيوب – عليه السلام – من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين، وكان يملك أرضًا واسعة

وحقولًا وبساتين، وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد، فكان عبدًا تقيًا ذاكرًا شاكرًا لنعم الله عليه، لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه، ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فصبر على البلاء وحمد الله وأثنى عليه، ومازال على حاله من التقوى والعبادة والرضى عن ربه، فكان في حالتي البلاء والرخاء مثالًا لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، وإرغام أنف الشيطان. " (محمد الصابوني)

الموضع الثاني: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص: ٤١) أي: " اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر، حين نادى ربه متضرعًا إليه قال: أني مسني الشيطان بتعب شديد في بدني، قال المفسرون: وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأدبًا

مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى." (محمد الصابوني)

وفي إضافة أيوب إلى الله في قوله تعالى: (عبدنا) تشريف كبير لأيوب.

ولله درك يا أيوب فقد ضربت القدح المعلى في الصبر، حتى قيل: صبرًا كصبر أيوب.

كشف البلوى عن أيوب عليه السلام:

مكث أيوب في بلائه الشديد ثماني عشرة سنة [١]، ولما تطاول البلاء على أيوب، حتى رفضه القريب قبل البعيد، عندئذ ناجى أرحم الراحمين: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٣) أي: شملني البلاء والكرب والشدة وأنت أرحم الراحمين، وقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص: ٤١)

---

[١] ذُكرت أقوالًا أخرى في مدة بلائه، فقد ذكر وهب بن منبه: أنها كانت ثلاث سنين، وقال أنس: سبع سنين وأشهرًا. والصواب ما أثبتناه للحديث الصحيح المذكور.

خرجت هذه الاستغاثة من قلب مكروب مهموم، خرجت من قلب صابر محتسب، فأنى لا يستجيب لها أرحم الراحمين ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل: ٦٢) أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب ...، إلا الله وحده. (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

فجاءت الإجابة الإلهية، قال تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ (ص: ٤٢) أي: قلنا له اضرب الأرض برجلك ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (ص: ٤٢) أي: فلما ضربها نبعت له عين ماء صافية، فقال الله تعالى له: اغتسل من هذا الماء يُشفَ ظاهرك، واشرب منه يُشفَ باطنك.

قال أبو حيان: " والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى فشفي." (محمد الصابوني)

قال أبو شبهة: " ظاهر القرآن عدم التعدد في الضرب، ولا في نبع الماء. " (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

أيوب الصابر المحتسب المطيع ما كان إلا أن ينفذ أمر ربه، ثقة بالله وتوكلًا عليه، وأخذًا بالأسباب، فأكرمه المنان بأن أذهب عنه ما به من بلاء في جسده، وشفي شفاء تامًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوان كانا يغدوان إليه، ويروحان إليه، فقال أحدهما لصاحبه: ذات يوم تعلم – والله – لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به؟**

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان (أي: يختصمان) فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن

يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته (أي: لقضاء حاجة الإنسان من البول والغائط)، فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها (أي: تأخر في الخروج من مكان قضاء الحاجة)، وأُوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (ص: ٤٢)، فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو. " (رواه البيهقي: (٤٢٤)، قال الألباني حديث صحيح)

نعم الله على أيوب عليه السلام:

كانت شفاء أيوب أول نعم الله عليه، وثاني نعم الله عليه كانت أن منحه الله أضعاف ما فقد من ولده، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ (ص: ٤٣)

قال ابن مسعود: " مات أولاده وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عُوفي أُحيوا له، وولدت امرأته سبعة بنين وسبع بنات." (محمد الصابوني)

وقال أبو حيان: " الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم." (محمد الصابوني)

والصواب ما قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وبماله، وقوّاه حتى كثر نسله، وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. (محمد الصابوني)

وقال الصابوني: " الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر؛ لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عيسى

عليه السلام، والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولادًا مثل من فقدهم." [1] (محمد الصابوني)

وهذا هو الصواب والله أعلم.

وثالث نعم الله عليه: أن منحه الله الخير (المال) الكثير، فقد روى البخاري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **بينما أيوب يغتسل عريانًا خرّ عليه (أي: سقط عليه) رجل (أي: عدد كثير) جراد (أي: الحشرة المعروفة) من ذهب، فجعل يحثي ثوبه، فنادى ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب،**

---

(١) ذُكر: أن أيوب لم يفقد أهله أو ماله، ولكنه لما كان مريضًا لم يشعر بوجود أهله حوله، وكأنهم غير موجودين، ولم يستمتع بماله فكأنه غير موجود، فصارت هذه النعم بالنسبة إليه كالمفقودة، فلما شفي وعادت الحياة الطبيعية له أحسّ بوجودهم، وكذلك استمتع بماله، فكأنه منحها من جديد.

وهذا القول لا دليل شرعي عليه، وإن كان قريب، ولكن الجزم به يحتاج إلى دليل شرعي.

ولكن لا غنى بي عن بركتك." [1] (رواه البخاري: ٧٤٩٣)

تساؤل: هل يجوز الاغتسال عريانًا إذا كان المكان خال؟

قال العدوي: " فقد استدل بهذا الحديث قوم على جواز الاغتسال عريانًا إذا كان في مكان خال، واستدلوا أيضًا بقصة اغتسال موسى – عليه السلام – عريانًا من وراء حجر، وعورض هذا الاستدلال بحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الاغتسال عريانًا (وذلك في مكان خال) فقال له عليه السلام: **الله أحق أن يستحي منه من الناس**" وإسناده حسن، وقال العدوي: وهذا محمول على الاستحباب والله تعالى أعلم." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

---

[٢] قال العدوي: " في هذا الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه الشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة. " (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: " **وكان له أندران (أي: مخزنان لجمع الثمار): أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق (أي: الفضة) حتى فاض.** " (رواه البيهقي: (٤٢٤)، قال الألباني حديث صحيح)

ومعنى الحديث: أي امتلأ المكانان بالذهب والفضة تعويضًا لأيوب ورحمة به.

وقعت لأيوب هذه النعم وغيرها ﴿ رَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ (ص: ٤٣) أي: رحمة من الله لصبره ولإخلاصه ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ ﴾ (ص: ٤٣) أي: وذكرى وتذكير لأصحاب العقول؛ ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج؛ لأنهم متى ذكروا بلاء أيوب – وهو أفضل زمانه – وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها، واللجوء إلى الله – عز وجل – فيما يحيق بهم، كما لجأ

أيوب؛ ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العاقبة، وعظيم الإكرام.

هذا نبي الله أيوب النبي الصابر المحتسب، هذا نبي الله أيوب القدوة الحسنة للصابرين، وسلوة المبتلين، وعبرة للمعتبرين، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قصة يمين أيوب عليه السلام:

أثناء مرض أيوب الطويل، يبدو أنه قد غضب على زوجته البارة الرحيمة بسبب أمر ما، فأقسم أن يجلدها مئة جلدة.

ونعمة أخرى أنعم الله بها على أيوب، أن خفف عنه وعنها، حيث قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص: ٤٤)

فقد كانت اليمين في شريعتهم واجبة لا تحنث (أي: لا تترك ويُكفر عنها)، وإنما يجب تنفيذها؛ لذا كان تخفيف الله عنه وعن زوجته بأن رخص له أن يأخذ

حزمة من العيدان مئة عود، ويضرب بها ضربة واحدة، وبذلك يكون قد وفّى يمينه.

ما الذي أغضب أيوب من زوجته حتى أقسم بهذا اليمين؟

ذكر المفسرون أقوالًا كثيرة، منها:

إن امرأته كان تخدمه، وضجرت من طول مدة خدمته وهو مريض، وقد تمثل لها الشيطان بصورة طبيب، وجلس في طريقها، فقالت له: يا عبد الله، إن ههنا إنسان مبتلى، فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم، إن شئت شفيته، على أن يقول إذا برأ: أنت شفيتني. فجاءت، فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، لله عليّ إن شفناني الله أن أجلدك مئة جلدة.

وزعم بعضهم:

أن إبليس لقي زوجة أيوب فقال لها: أنا الذي فعلت بأيوب ما فعلت، وأنا إله الأرض، ولو سجد لي سجدة

واحدة لردت عليه أهله وماله، فجاءت فأخبرت أيوب، فأقسم أن يضربها مئة جلدة إن عافاه الله.

وهذا كله كذب واختلاق.

فما سبب قسم أيوب بذلك؟

لا نشك في أن أيوب أقسم هذا اليمين، وربما لشيء أغضبه منها، فما هذا الشيء؟ لم يرد شيء ثابت عن المعصوم – صلى الله عليه وسلم – يحدد ذلك.

فالصحيح: ردَّ علم ذلك إلى الله، ونقول: أقسم أيوب أن يضرب زوجته مئة جلدة لأمر ما أغضبه منها لا يعلمه إلا الله.

الإسرائيليات الواردة في قصة أيوب:

قصة أيوب من القصص التي تزايد فيها اليهود، واستغلوها أسوء استغلال، فأطلقوا فيها عنان خيالهم الخبيث، ووجدوا فيها ضالتهم، فزيفوا فيها ما زيفوا، انتقاصًا لنبي الله أيوب، فرموه بما عصم أنبياءه عنه، وصوروه بصورة لا يرضاها الله لرسول من رسله.

الإسرائيليات الواردة في قصة مرضه:

ومن هذه الخرفات والأباطيل: ذكروا أن أيوب – عليه السلام – أصيب بالجذام أو الجدري في جميع جسده، حتى أنه لم يسلم موضع إلا وقد أصيب عدا القلب واللسان، حتى تساقط لحمه، وظهر العصب والعظم، فبشع منظره، وعافاه الناس كلهم واستقذروه، وصار منبوذًا، بل وألقوه على مزبلة بلدتهم، تختلف الدواب على بدنه وتنهش منه.

وهجره كل الناس سوى زوجته، فهي التي كانت تحنو عليه، وزعموا أنها تعرضت لكثير من الأذى بسبب مرضه، حيث أنفقت عليه كل مالها، ولمّا فني ولم تجد ما تنفقه عليه، عملت كخادمة ذليلة في بيوت الناس لتوفر نفقته، وحتى هذه المهنة المُهينة الذليلة لم تبق لها، فقد طردها الناس من بيوتهم خوفًا أن تعديهم؛ لأنها كانت تختلف على أيوب، فاضطرت لبيع ضفائر شعرها لتنفق عليه!!

إلى غير ذلك من الكذب والتزوير والإفك، الذي لا يشك إي منصف أنه من دسّ زنادقة أهل الكتاب، الذين ما فتئوا إلا أن يلصقوا بأنبياء الله كل عيب وسوء، وليس صنيعهم هذا بعجيب، أليس هم الذين قالوا: يد الله مغلولة؟ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا!

ما الصواب في قصة مرضه؟

الظاهر من القرآن والسنة الصحيحة أن أيوب أُبتلي في جسده، ومرض مرضًا عضالًا، ولكن مرضه لم يصل لمثل هذه الخرافات والأكاذيب.

فالأنبياء يبعثون من أوساط أقوامهم (أي: خيارهم)، وبالطبع أيوب كان من قبيلة شريفة عزيزة، فأين عشيرته الشريفة العزيزة لتأخذه وتطعمه؟ وهل يعقل أن يتركه أقاربه وهم أشراف القبيلة وأسيادها ملقى على المزبلة ثماني عشرة سنة؟! أيعقل هذا؟! أيعقل أن يتركوه حتى تنهش الدواب من لحمه؟! أيعقل هذا وهم الأشراف؟

أيعقل أن يتركوا زوجته تعاني ما عانت من أجل أيوب لدرجة بيع الضفائر؟!

أي عاقل منصف يرفض هذا الكذب، وقد يقال: تركوه عقابًا لأنه مؤمن وهم كفار، وربما جرت بينهما مناظرات ومنافرات، وكانت الأقوام السابقة تتفن في إيقاع الأذى بأنبيائهم، ولما أيوب وقع في الأذى من دون جريرةٍ منهم تركوه ليقاسي شأنه، وهو عدو آلهتهم ومسفه عقولهم وعقول آبائهم.

نعم، كانت الأمم السابقة الكافرة تلحق الأذى بأنبيائهم، وأيوب ليس بدعًا من الرسل، لكن هناك فرق بين أذى قوم بتخطيطهم وتنفيذهم ردًّا على تسفيه عقولهم وإهانة آلهتهم، وبين أذى قاسٍ بهذا الشكل لا سيما وهو بدون تخطيط منهم، بالتأكيد سيعيرون إذا تركوه بهذا الحال!!

وإن فرضنا جدلًا أنهم فعلوا ذلك، وهذا مستبعد جدًا، فأين أبناؤه؟ وأين المؤمنون به؟!

من الواضح جدًا أن العقل كما الشرع يرفضان ذلك جملة وتفصيلًا، وهذا من الإسرائيليات المكذوبة بلا شك، ومما يؤكد على أن الصورة التي رسمها زنادقة أهل الكتاب لمرض أيوب صورة كاذبة مختلقة، أن الله عندما أراد أن يشفي أيوب طلب منه أن يضرب الأرض بقدميه، فكيف لمريض بمثل هذه الصورة أن ينهض من مكانه؟ فضلًا عن أن يضرب الأرض ثم يشرب ويغتسل؟!

وصدق أبو بكر العربي حينما قال عن الإسرائيليات:

" الإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالًا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالًا." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " فالحق أن نسيج القصة مهلهل، لا يثبت أمام النقد، ولا يؤيده عقل سليم، ولا نقل صحيح، وأن ما أصيب به أيوب من مرض، إنما كان من النوع غير المنفر والمقزز، وأنه من الأمراض التي لا يظهر

أثرها على البشرة، كالروماتيزم، وأمراض المفاصل والعظام ونحوها." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

أيوب عليه السلام

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة أيوب - عليه السلام -

تمهيد:

قصة أيوب كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. هل يباح للرجل أن يضرب زوجته تأديبًا؟

بداية لم تعرف المرأة في تاريخ الإنسانية كرامة واحترامًا كما عرفتها في الإسلام، فقد كانت المرأة في جميع الحقب التاريخية متاع وسلعة، تعرض وتباع وتشترى، يستمتع بها ثم تلقى كأية سلعة أدت غرضها، فجاء الإسلام فأعطاها حقها من الكرامة الإنسانية، وجعلها صنو الرجل في المجتمع، وأعطاها حقوقًا كثيرة كأم وزوجة وأخت وبنت، لا يستطيع أي منصف أن يقلل من شأنها.

وإن عدنا للسؤال **هل يباح للرجل ضرب زوجته تأديبًا؟**

نقول: الحياة الزوجية لا تخلو من أن يقع من بعض الزوجات نشوزًا (أي: ترفع المرأة وخروجها عن حقوق زوجها)، ومن كرامة الزوجة وحقها على زوجها أن يعيدها إلى جادة الطريق إن نكبت عنه بالكلمة الحسنة، والموعظة الرقيقة، والنصيحة المشفقة.

فإن لم يفلح ذلك معها استخدم الزوج عقابًا نفسيًا وهو الهجران [١] ؛ للتأكد الزوجة أن زوجها رافضًا ذلك النشوز، والحق أحق أن يتبع.

وأغلب الزوجات يعدّن إلى الصواب بعد إحدى هذين العلاجين، ويبقى صنف قليل من الزوجات لا يفلح معهن ما سبق، فيأتي آخر العلاج الكي، وهو الضرب، ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك: ١٤)

" ومشروعية ضرب النساء ليست بالأمر المستكره في العقل والفطرة، فقد أثبت التجارب أنه في حال فساد البيئة وغلبة الأخلاق الفاسدة قد لا يستغني عن إيقاع هذه العقوبة على من صفتها هكذا لا سيما إذا كانت ناشزًا لا يصلح حالها عادة إلا بعد توقيع هذه العقوبة

(١) يقصد بالهجران: " هو الهجر في المضجع، وهو نوع من أنواع التأديب لمن تحب زوجها، ويشق عليها هجره، والمراد به هنا هو: عدم جماعها، وليس المراد هجر حجرة النوم أو هجر الفراش؛ لئن في ذلك زيادة في العقوبة لم يأذن الله بها، وربما يكون سببًا لزيادة الفجوة." (محمد الحفناوي)

عليها، فلكل حال حكم يناسبها في الشرع." (محمد الحفناوي)

والضرب هنا ليس بقصد التشفي والانتقام، وإنما هو علاج، فيكون ضربًا في حدود العلاج، كما قال صلى الله عليه وسلم: " **واضربوهن ضربًا غير مبرح.** " (رواه ابن ماجه: ١٨٥١)

والجواز لا ينافي الكراهة، فقد ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: ذئر (أي: اجترأن ونشزن) النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ضربهن، فأطاف بآل النبي – صلى الله عليه وسلم – نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد أطاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم.**" (رواه أبو داود: (٢١٤٦)، وابن ماجه: (١٩٨٥))

وقال صلى الله عليه وسلم: " **لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم.**" (رواه البخاري: ٤٩٠٨)

قال محمد رضا: " وأذكر أني هديت إلى معنى هذا الحديث العالي قبل أن أطلع على لفظه الشريف، فكنت كلما سمعت أن رجلًا ضرب امرأته، أقول: يا الله العجب! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة الأزواج مع امرأة تضرب؟

تارة يسطو عليها بالضرب، فتكون منه كالشاة من الذئب، وتارة يُذل لها كالعبد طالبًا منتهى القرب! " (محمد الحفناوي)

" وجملة القول: أن الضرب علاج مرّ، قد يستغني عنه الخَيْر الحرً، كما قال صلى الله عليه وسلم في حق من يضرب زوجته " **ليس أولئك بخياركم**" (رواه أبو داود: (٢١٤٦)، وابن ماجه: (١٩٨٥))، ولكنه لا يزول من البيوت بكل حال نظرًا لاختلاف طبائع الناس. " (محمد الحفناوي)

توضيح مهم:

ضرب الزوجة في الإسلام ضرب رحمة وشفقة، أما غير المسلمين الذين يتشدقون بأنهم أصحاب المدنية والحضارة، فهم أكثر المسيئين إلى النساء ضربًا وإهانة، وإليكم هذه الإحصائية التي تظهر مهانة المرأة في المجتمعات التي لا تدين بالإسلام:

- في دراسة أمريكية أجريت عام (١٩٨٧م) أشارت إلى أن (٧٩%) من الرجال يقومون بضرب النساء، وبخاصة إذا كانوا متزوجين منهن.

- وفي دراسة أعدها المكتب الوطني الأمريكي للصحة النفسية، جاء أن (١٧%) من النساء اللواتي يدخلن غرف الإسعاف هن ضحايا ضرب الأزواج أو الأصدقاء، وأن (٨٣%) دخلن المستشفيات سابقًا مرة على الأقل للعلاج من جروح وكدمات أصبن بها، وكان دخلهن بسبب الضرب.

وقد جاء في هذه الدراسة التي فحصت (١٣٠٦) سجلًا للنساء في المستشفيات أن النساء في أمريكا كان

أكثر الأسباب شيوعًا للإصابة بالجروح التي تصاب بها النساء هو بسبب ضرب الأزواج أو الأصدقاء، وأنها تفوق ما يلحق بهن من أذى حوادث السيارات والسرقة والاغتصاب مجتمعة، وأكدت الدراسة أن ضرب النساء هو إحدى حقائق المجتمع الأمريكي، ومشكلة اجتماعية واسعة الانتشار.

- وفي فرنسا تتعرض حوالي مليوني امرأة للضرب.

- ويفيد تقرير بريطاني أن الزوج يضرب زوجته دون أن يكون هناك سبب يبرر الضرب، ويشكل هذا نسبة (٧٧%) من عمليات الضرب. (محمد الحفناوي)

٢. الأدب مع الله:

قال أيوب: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص: ٤١) حيث أسند الضر الذي أصابه في بدنه وأهله إلى الشيطان، أدبًا مع الله، مع أن الفاعل الحقيقي هو الله رب العالمين، فالخير والشر، والنفع والضر، بيد الله تعالى، ولكن الشر لا ينسب إلى الله، وإنما ينسب إلى

النفس والشيطان، وقد راعى هذا الأدب إبراهيم – عليه السلام – حيث قال: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الشعراء: ٧٩ – ٨٠) حيث نسب إبراهيم الإطعام إلى الله، ونسب المرض إلى نفسه أدبًا.

وقد رمق هذا الأدب الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال: ﴿ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران: ٢٦) حيث التقدير: وبيدك الخير والشر؛ لأن مقاليد الأمور كلها بيده تعالى، وإنما آثر ذكر الخير دون الشر؛ لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه؛ أو لأنه أكثر وجودًا في العالم من الشرّ، وأهم شيء أدبًا مع الله تعالى حيث لا ينسب الشر إليه.

٣. هل كان قول أيوب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ (الأنبياء: ٨٣) شكوى؟

قول أيوب: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ (الأنبياء: ٨٣) ليس فيها شكوى أو تبرم، وإنما هي إخبار عن حاله، وإقراره بالعجز، فلم يكن منافيًا للصبر.

قال القرطبي: " كان دعاء منه، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضى، قال ثعلب: حضرت مجلسًا غاصًا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلتُ عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية، وقد قال تعالى: (إنا وجدناه صابرًا)، فقلتُ: ليس فيها شكاية، وإنما كان دعاء بيانه (فاستجبنا له) والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وإن عددنا هذا القول شكوى من أيوب، فإن الشكوى إذا كانت لله تعالى لا تنافي الصبر، فقد قال يعقوب: ﴿

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (يوسف: ٨٦)

ولو كانت الشكوى إلى غير الله تنافي الصبر لما مدح الله أيوب، وقال: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص: ٤٤)

٤. هل النصب والتعب الذي أصاب أيوب من الشيطان؟

قال الشنقيطي: " وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في سورة ص إشكال معروف؛ لئن الله ذكر في آيات من كتابه أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ (النحل: ٩٩ – ١٠٠)

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري حيث قال:

فإن قلت: لِمَ نسب إلى الشيطان؟ ولا يجوز أن يسلطه على أنبيائه لإتعابهم وتعذيبهم، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرار في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلتُ: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

وقيل: " أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف

البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

وقال الشنقيطي: " ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله، ابتلاء ليظهر صبره الجميل، وتكون له العافية الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب؛ لئن التسليط على المال والأهل والجسد من جنس الأسباب التي ينشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء، فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة، ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

٥.لماذا أمر الله تعالى محمدًا – صلى الله عليه وسلم – أن يذكر قصة أيوب للمؤمنين؟

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص: ٤١)

فقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا في هذه الآية أن يذكر قصة أيوب للمؤمنين، وذلك لعدة فوائد:

أ. إظهارًا لنعم الله على عباده عمومًا، وعلى أوليائه خصوصًا.

ب. تذكيرًا للعابدين الذين وصفهم الله تعالى بأولي الألباب، الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه، وأنهم هم المنتفعون بالذكرى والقصة. (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

ج. لتكون عبرة للمؤمنين في الصبر على الابتلاء، وتحمل مشاق الحياة.

٦. لطيفة بيانية:

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنبياء: ٨٣) ختم القصة هنا: (رحمة من عندنا)، وختمها في سورة ص بقوله: (رحمة منا)، **ما السرّ في ذلك؟**

" أيوب في سورة الأنبياء بالغ في التضرع بقوله: (وأنت أرحم الراحمين)، فبالغ تعالى في الإجابة، فناسب

ذكر (من عندنا)؛ لئن (عندنا) يدل على أنه تعالى تولّى ذلك بنفسه، ولا مبالغة في سورة ص في تضرع أيوب، فناسب ذكر (منا) لعدم دلالته على ما يدل عليه (عندنا)." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

٧.بديعة قرآنية:

قال تعالى:﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص: ٤١) ذكر الله في الآية الكريمة أن أيوب – عليه السلام – كان قد حصل له نوعان من البلاء:

النوع الأول: المشقة الشديدة بسبب زوال النعم والخيرات، **والنوع الثاني:** حصول المكروه والألم الشديد في الجسم، ولما كان كل منهما قد لحق به وأصابه الضر بسببه، أحدهما مادي، والآخر جسدي؛ ذكر الله تعالى في الآية الكريمة لفظين هما: النصب والعذاب؛ ليقابل النصب بالضر الذي أصابه في الجسد، وقابل العذاب بالبلاء الذي أصابه في الأهل والمال.

٨. أيهما أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟

" سئل سفيان عن عبدين: ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء؛ لئن الله تعالى أثنى على عبدين: أحدهما صابر، والآخر شاكر ثناء واحدًا، فقال في وصف أيوب: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص: ٤٤)، وقال في وصف سليمان: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وقد فضل بعض العلماء: الغني الشاكر على الفقير الصابر؛ لئن الغنى ابتلاء وفتنة، والشاكر من عباد الله قليل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (سبأ: ١٣) بخلاف الصابر فإنه كثير، والمسألة فيها نظر." (محمد الصابوني: ١٩٩٩)

٩. سلامة الأنبياء من العيوب المنفرة:

الأنبياء بشر وهم عرضة لكل ما يصاب به البشر، ويستثنى من ذلك: المُحَرم، والمكروه، والمباح المزري،

والمزمن، وما تعافه النفوس، ومما يؤدي إلى النفرة، فلا يصاب النبي بالبرص، أو الجذام، أو الشلل، أو العمى، أو الجنون.

أما الإغماء: " فقال النووي: لا شك في جوازه عليهم؛ لأنه مرض بخلاف الجنون، فإنه نقص، وقيد الغزالي الإغماء بغير الطويل، وقال السبكي: وليس كإغماء غيرهم، وما ذكر أن شعيبًا كان ضريرًا لم يثبت، وأما يعقوب فحصل له غشاوة وزالت." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

أما إصابتهم بالفقر والمرض يمكن أن يصب النبي بهما؛ لأنهما ليس فيهما صفات تبعد الناس عنهم، وإنما هي لرفع مكانتهم وللاقتداء بهم.

١٠. الأخذ بالأسباب:

الأخذ بالأسباب الصحيحة أمر مطلوب، ولا ينافي ذلك التوكل على الله، فالتوكل الصحيح: هو الثقة بالله،

والاعتماد عليه مع الأخذ بالأسباب الصحيحة المشروعة، فالتوكل يلتئم هذين الأصلين.

فالتوكل الصحيح المشروع لا ينقطع عن الأخذ بالأسباب ولا يخلو منها، وفي المقابل: ترك الأخذ بالأسباب يعدّ تواكلًا، وكما ترك التوكل طعن في التوحيد، ترك الأخذ بالأسباب نقص في العقل.

والأسباب وإن كانت ضعيفة وبسيطة في نظر العبد التي يبذلها، فالله سبحانه يبارك فيها، ويجعل فيها الخير الكثير.

البسيط سببًا في شفاء أيوب، وكان الله قادرًا أن يشفيه بكلمة واحدة شفاء سريعًا مباشرًا؛ ليعلمنا الله سنة كونية وتعبدية، ألا هي الأخذ بالأسباب مع الاعتماد الكامل بأنها من قدر الله، ولا تعمل إلا بإذنه.

كما علمنا الله ذلك في قصص غيره من الأنبياء، فرسولنا – صلى الله عليه وسلم – قاتل وهو بين درعين، ولبس لامته، ووضع المغفر على رأسه، فعل هذه الأسباب الضعيفة وهو على ثقة تامة بأن الله حاميه،

والله كافيه، فقد قال تعالى: ﴿ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنفال: ٦٤)

وفي طريق هجرته، ألم يتخذ دليلًا؟ وألم يخرج في وقت يغفل فيه الناس؟ ألم يخرج من طريق غير متوقع؟ فعل ذلك ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ (المائدة: ٦٧)

وفي قصة مريم العذراء: طلب الله من امرأة ضعيفة (مريم) وفي حال نفاسها أن تهز نخلة قوية، ولكن هذا السبب الضعيف جعله الله بقدرته أن سقط الرطب جنيًا، فكان الله قادر أن يسقطه بدون هزّ، وماذا يمكن أن يفعله الهزّ أساسًا لا سيما من امرأة ضعيفة نفساء؟

إنها سنة الأخذ بالأسباب المشروعة الصحيحة، ولله در القائل:

توكل على الرحمن في كل حاجة ... ولا تؤثرن العجز يومًا على الطلب
ألم تـر أن اللـه قـال لـمـريـم ... إليك فهزي الجذع يساقط الرطـب
ولوشاء أن تجنيه من غير هزها ... جنـتـه ولـكن كل شيء لـه سبـب

١١. الصبر:

والصبر ثلاثة أنواع:

أ. **صبر على طاعة الله:** وهو أن تصبر على تنفيذ أوامر الله تعالى من الطاعات والقربات كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، وغيرها.

ويعد هذا النوع أشد أنواع الصبر على النفوس.

ب. **صبر عن معصية الله:** وهو أن تصبر عن الذنوب والمعاصي باجتنابها.

وهذا النوع الثاني من حيث الشدة على النفوس.

ج. **صبر على أقدار الله المؤلمة:** وهو أن تصبر على ابتلاءات الدنيا من مرض، وموت أحبة، وخسارة أموال.

والصبر على هذه الابتلاءات أمر مطلوب ومرغوب فيه، وعاقبته محمودة.

" فحين صبر أيوب أكرمه الله بالمال الوفير، والأجر الجزيل، وعوضه عن الأهل والولد بضعفهم، وبارك

فيهم، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرࣲّۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةࣰ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٤)

(محمد الصابوني: ١٩٩٩)

١٢. أفعال الله منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد:

أفعال الله تعالى منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)

قال الرازي: " فأيوب لم يقترف ذنبًا حتى يكون ابتلاؤه كان في مقابلة ذلك الجرم، وإن كان البلاء ليجزل له الثواب، فإن الله تعالى قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام والأسقام، وحينئذ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة، وهذه كلمات ظاهرة جلية، والحق الصريح أنه لا يسئل عما يفعل." (محمد الصابوني: ١٩٩٩)

١٣. هل رخصة أيوب عامة؟

قال الصابوني: " اختلف العلماء في هذا الحكم الذي أرشد الله تعالى إليه نبيه أيوب عليه السلام، هل هو خاص به أم عام لجميع الناس؟

فذهب عطاء بن أبي رباح وابن أبي ليلى إلى أن الحكم عام، وأن هذه الرخصة لجميع الناس فضلًا من الله تعالى وكرمًا، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة.

وذهب مجاهد إلى أنه خاص بأيوب عليه السلام، وهو منقول عن ابن عباس رضى الله عنه، وهو مذهب مالك وأحمد." (محمد الصابوني: ١٩٩٩)

والقول بأن هذا الحكم خاص بأيوب هو الصحيح إن شاء الله؛ لئن أيوب كانت اليمين عندهم واجبة، ولو كان في شرعهم أن لها كفارة، لعدل إلى التكفير، ولم يحتج لهذه الرخصة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت امرأة أيوب معذورة والله أعلم، فأفتى الله لنبيه أيوب أن يعاملها

معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له البر في يمينه والرفق بها.

فظاهر النص القرآني في قصة أيوب لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى، فعن سعد بن عبادة: قال: كان بين أبياتنا روجيل ضعيف مخدوع، فلم يرع الحي إلا هو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الرجل مسلمًا، **فقال: اضربوه حده، قالوا يا رسول الله، إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مئة قتلناه، فقال: خذوا له عكتالًا فيه مئة شمراخ، ثم اضربوه به ضربه واحدة ففعلوا.**" رواه أبو داود: (٤٤٧٢)، والنسائي: (٣٠٠))

واليمين في شرعنا جعل الله لها مخرجًا بالكفارة.

١٤. وقفة مع أحكام اليمين:

اليمين في الشرع:

أن يحلف الإنسان بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، على فعل شيء أو تركه، تقوية للخبر، أو يقسم على أمر يريد فعله، تأكيدًا لكلامه، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **والله لأغزون قريشًا." قال ذلك ثلاث مرات، ثم قال في الثالثة: " إن شاء الله."**

فقولك: أقسم بالله لأفعل كذا، أو بدون أقسم، نحو: بالله أفعل كذا، والله لا أفعل كذا، تالله لأفعل كذا، كل هذه الصيغ أيمان.

أقسام اليمين: اليمين ثلاثة أقسام:

١- **يمين لغو:** وهو ما لم يتعمده الإنسان، ومن صور صيغه:

يحلف الإنسان على أمر قد مضى، وهو يظن أنه كما قال، كأن يقول: والله إن فلانًا ليس في البلدة؛ لأنه يعتقد أنه مسافر، ثم يظهر أنه في البلدة. أو يقول: والله

ليس معي نقود؛ لأنه يظن أنه ترك المحفظة في البيت، ثم يظهر أن معه نقودًا، ونحو ذلك.

وهذا قول أبي حنيفة ومالك، ومروي عن ابن عباس والحسن البصري ومجاهد.

بينما قال الشافعي وأحمد: اليمين اللغو هو ما يجري على اللسان من غير قصد الحالف، كقول الإنسان في كلامه: لا والله، بلى والله، دون قصد الحلف، وإنما يجري على لسانه كذكر وتسبيح الله تعالى، وهذا التأويل ليمين اللغو منقول عن عائشة وعكرمة والشعبي.

والصحيح: أن اللغو يشمل النوعين، وهذا اختيار شيخ المفسرين ابن جرير الطبري.

حكمه: أنه لا إثم فيه، ولا كفارة، لقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩)

٢- اليمين المنعقدة:

وهي: الحلف على أمر في المستقبل، يحلف على فعله، أو تركه، كقوله: والله لأسافرن إلى مصر، أو:

والله لا أكلم فلانًا، ونحو ذلك. والحالف يقصد ذلك ويتعمده.

وسميت بالمنعقدة: لئن الله أوجب بها كفارة عند الحنث، وانعقدت عليها الأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ ﴾ (المائدة: ٨٩)

حكمها: إن كانت على خير، كأن قال: والله لأصلين ركعتين لله، أو: والله لأزور أخي غدًا، ونحو ذلك، عليه أن يبر بقسمه ويمضيه ويفعله، وإن لم يفعله لسبب ما حنث يمينه، ووجب عليه الكفارة.

وإن كان على أمر مفروض عليه، كأن يقول: والله لأصلين الظهر، ونحو ذلك، يجب عليه إمضاء قسمه؛ لئن ذلك فرض عليه، ويتأكد باليمين، وإن لم يفعله يأثم لعدم فعله.

وإن كان يمينه على شرّ، كأن يقول: والله لأشربن الخمر، ونحو ذلك، وجب عليه حنثه والتكفير عن يمينه.

مسائل في اليمين المنعقدة:

أ. **الحلف على أمر ماض:** كأن يسأل إنسان إنسانًا: أأنت الذي شرب الماء؟ فيقول: لا، والله لم أشربه.

إن كان صادقًا لا شيء عليه، وإن كان كاذبًا يأثم، وهل عليه كفارة؟ لا؛ لئن اليمين يكون لأمر في المستقبل، وهذا إخبار يحتمل الصدق والكذب، وعليه التوبة.

ب. **الاستثناء في اليمين:** كأن يحلف الإنسان على شيء، ويعلقه على المشيئة فورًا، كقوله: والله لا أكلم فلانًا إن شاء الله، فإن كلمه لم يحنث، ولا كفارة عليه، وسبب عدم الحنث لئن المشيئة غير معلومة لأحد، فكأنه استثناء من القسم، وهذا الاستثناء يشترط أن يكون متصلًا، فإن حلف على شيء ثم قال بعده بعد مدة: إن شاء الله، لم يصح الاستثناء ويحنث ويكفر.

ج- اليمين الغموس:

وهي أن يحلف الإنسان على شيء مضى وحدث، متعمدًا الكذب، عالمًا أنه كاذب؛ ليقطع حق إنسان أو يضع حقه.

كأن يقول:

أ. والله قد أخذ فلان كل حقه وماله من عندي، قال ذلك وهو يعلم أن له عنده مالًا.

ب. أو يقول: والله ما بتعه الدار، وقد باعه ثم أنكر البيع.

ج. أو: يحلف أمام القاضي كذبًا أنه رأى السلعة عند فلان، وهو لم يراها.

وسميت غموسًا:

لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، وتسمى (اليمين الفاجرة).

قال صلى الله عليه وسلم: " **من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، حرم الله عليه الجنة، وأوجب له النار، قال رجل: وإن شيء يسير يا رسول الله؟ قال: وإن**

قضيب من أراك." (رواه مسلم: (١٣٧)، والنسائي: (٥٤١٩)، وابن ماجه: (٢٣٢٤)، وأحمد: (٢٢٢٣٩))

أي: ولو كان هذا الحق قضيبًا من السواك؛ لأنه استهان بجلال الله وعظمته، فحلف كاذبًا، ولا يقدم على ذلك إلا فاجر، ولهذا جاء في رواية عند مسلم: قال صلى الله عليه وسلم: " **من حلف على يمين صَبْر** [١]، **وهو فيها فاجر، يقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان.** (رواه البخاري: (٦٦٧٦)، ومسلم: (١٣٨))

وفيهم نزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧ ﴾ (آل عمران: ٧٧)

---

(١) يمين الصبر هي التي يصبر فيها الإنسان نفسه على الجزم باليمين، فكأنه يحبس نفسه على هذا الأمر العظيم، وهي اليمين الكاذبة.

حكمها: لا كفارة عليها؛ لأن ذنبها أعظم من أن يُكَفّر؛ وإنما عليه التوبة وإرجاع الحقوق لأصحابها.

اليمين بغير الله تعالى:

كأن يحلف الإنسان بالإسلام، أو بالأنبياء، أو بالكعبة، أو قال: علي سخط الله، ونحو ذلك.

حكمه: لا يعد هذا يمين بإجماع العلماء، وهو مكروه، قال الشافعي: أخشى أن يكون معصية، ولا يجب فيه الكفارة.

فائدة: الحلف بالقرآن لا يجوز إلا إذا قصد بالقرآن أنه كلام الله فيجوز؛ لأنه صفة من صفاته، يجوز القسم بها.

هل اليمين على نية الحالف أم المستحلف؟

إذا طُلب من إنسان أن يحلف، فالنية تكون على نية المستحلف (أي: الخصم الطالب لليمين)؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " **يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك.**" (رواه مسلم: ١٦٥٣)

بمعنى: لا يجوز للحالف أن ينوي بيمينه شيئًا آخر غير نية خصمه الذي طلب منه اليمين، إلا أن يكون مظلومًا، فله أن ينوي بيمينه شيئًا آخر، دفعًا للظلم عنه.

تكرار اليمين:

إذا كرر إنسان اليمين مرارًا، كقوله: أقسم بالله العظيم، أقسم بالله العظيم، أقسم بالله العظيم، لا أكلم فلانًا، ثم كلمه، حنث في يمينه، وعليه كفارة واحدة.

أما إذا حلف ألا يكلم إنسانًا وكلمه، فعليه كفارة، ثم حلف ألا يدخل هذه الدار ثم دخلها، فعليه كفارة، ثم حلف ألا يسافر مع فلان وسافر، فعليه كفارة، سواء كان الحلف في مجلس واحد، أو في مجالس متفرقة؛ لئن هذه أعيان متفرقة، وليس من جنس واحد، ولا يمكن أن يراد بها التأكيد.

وذهب بعض فقهاء الحنفية: إذا كثرت الإيمان تداخلت، وعليه كفارة واحدة، وفي هذا القول فسحة عظيمة لمن أُبتلي بكثرة الأيمان، وأراد أن يتوب، فيجزئه كفارة واحدة.

كفارة اليمين:

من رحمة الله تعالى أن شرع لنا كفارة الأيمان، حتى لا يشق علينا، وهي:

قال تعالى: ﴿ فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المائدة: ٨٩)

وهي على الوجه الآتي:

أ. إطعام عشرة مساكين.

ب. كسوتهم.

ج. عتق عبد مملوك.

وتلك الأشياء على التخيير، فهو مخير بين الإطعام، أو الكسوة، أو عتق الرقبة، أيهما أتى أجزاه.

ويجوز عند الحنفية دفع القيمة (أي: دفع المال)، ولا يجزئ دفع المال كله لفقير واحد؛ لأن الله حدد العدد عشرة مساكين، فلا بد من تفريق المال على عشرة فقراء.

الثلاثة السابقة، عليه صوم ثلاثة أيام، ويشترط الجمهور أن يصومها متتابعة، والشافعي جوّز صومها متفرقة.

لطيفة: وقع أمير أندلسي على امرأته في نهار رمضان، فسأل هذا الأمير الأندلسي شيخ الأندلس وعالمها يحيى الليثي عن ذلك، فأفتاه الليثي بالكفارة، وهي أن يصوم شهرين متتابعين، استغرب تلاميذ يحيى، وسألوا شيخهم: لماذا لم تفته بأنه مخير بين العتق والإطعام والصوم؟

فقال: لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه هذا العمل ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود." (الشاطبي: ١٩٩١)

الخاتمة

الابتلاء سنة الله الكونية، والابتلاء لا يقتصر على الشر وحسب، وإنما يكون بالخير والشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

ولما كان طبع الناس الفرح بالخير ونسيان شكره، والجزع من الشر ونسيان الصبر عليه، قصّ الله علينا قصة أيوب؛ لتكون قدوة حسنة للصابرين، وسلوة للمبتلين، وعبرة للمعتبرين.

فقد مكث أيوب في بلائه ثماني عشرة سنة، مكث كل هذه المدة الطويلة وهو صابر محتسب، ولما سمع من أحد المقربين له يقول: لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد، عندها دعا ربه: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

فاستجاب له ربه، وكشف عنه البلوى، وأعطاه ضعف ما فقد من ولده وماله، رحمة من الله، وجزاء لصبره وإخلاصه.

هذا نبي الله أيوب مضرب المثل في الصبر، فإذا ذكر الصبر، قيل، صبرًا كصبر أيوب!

وصدق صلى الله عليه وسلم: " **أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة.**" (رواه ابن ماجه: (٤٠٢٣)، وابن حبان: (٦٢٩))

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١. إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م.

٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٣. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٤. زكريا الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٥. عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٦. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، مكتبة دار المنارة، ٢٠١١م.

٧. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٨. حمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.

٩. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

١٠. محمد على الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

١١. محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

١٢. محمد علي الصابوني، الفقه الميسر، مؤسسة الريان، ٢٠٠٠م.

١٣. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨هـ.

١٤. محمد بن صالح المنجد، أعمال القلوب، دار الفجر، ٢٠٠٥م.

الباب الرابع

نبي الله الكريم

يونس عليه السلام

مقدمة الباب:

هذا باب نبي الله الكريم يونس بن متى عليه الصلاة والسلام، والذي يروي قصة يونس الملقب بذي النون، يروي قصته مع قومه، وما كان من شأنه وشأنهم، وذلك من خلال فصلين:

حيث جاء الفصل الأول (قصة يونس عليه السلام) يتحدث عن دعوة يونس لقومه، وسبب غضبه عليهم، والمنحة التي وقعت له، وامتنان الله على يونس بالتوبة عليه ورفع الغمّ عنه، وكيف أبدل الله محنته إلى معجزة، وعدد الفصل نعم الله على يونس الكريم.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة يونس عليه السلام) تناول أهم الثمار المستطابة من قصة يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

الفصل الأول

قصة نبي الله

يونس عليه السلام

الفصل الأول

قصة نبي الله يونس - عليه السلام -

تمهيد:

يونس عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل، " وقد ذكره الله باسمه في القرآن الكريم أربع مرات في سورة النساء، والأنعام، ويونس، والصافات. " (محمد الصابوني)

وذكره الله تعالى في القرآن بالوصف في موضعين:

الموضع الأول: في سورة الأنبياء حيث لقبه تعالى بذي النون (أي: صاحب الحوت)، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

الموضع الثاني: في سورة القلم حيث سماه تعالى بصاحب الحوت، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ (القلم: ٤٨)

" فيكون قد ذُكر في القرآن الكريم ست مرات، أربع مرات بالاسم ومرتين بالوصف. " (محمد الصابوني)

١- **لطيفة:** ذو النون هو لقب يونس بن متى لابتلاع النون إياه، والنون أي: الحوت، وذو النون أي: صاحب الحوت.

- وفي حديث عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال: دسموا نونته كي لا تصيبه العين "

وعن ابن الأعرابي: النونة النقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير، ومعنى دسموا أي سودوا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

بعثة يونس عليه السلام:

بعث الله تعالى يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق، وقد كانت الوثنية انتشرت فيهم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ ﴾ (الصافات: ١٣٩) أي: "إن يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه" (محمد الصابوني)

دعوة يونس عليه السلام لقومه:

دعا يونس قومه إلى الله تعالى دعوة صادقة كريمة، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته لا سيما أشرافهم وكبراءهم شأن أكثر أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾ (سبأ: ٣٤)

مكث أهل نينوى على كفرهم وعنادهم، بالرغم من دعوة يونس الحارة الصادقة لهم، بينما يونس لم ييأس واستمر يذكرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله، ولكن – يا

للأسف – لم يلق منهم إلا إعراضاً ونفوراً، وقلوباً غلفاً، وآذاناً صماً.

غضب يونس - عليه السلام - على قومه:

طال حال يونس مع قومه الكافرين، وهم على هذه الحالة من الكفر والتكذيب والعناد، مما دفعه للخروج من بينهم وهو مغاضب، وذلك قبل أن يأمره ربه بالخروج من بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي: خرج يونس غضباً على قومه بسبب كفرهم لأجل الله تعالى.

تنويه مهم: يونس عليه السلام ذهب مغاضباً لقومه وليس مغاضباً لربه؛ لئن مغاضباً لربه معصية لا تليق بالعلماء الداعين المجتهدين، فما بالك بالأنبياء الأكرمين الأجلاء.

قال الرازي: " لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى؛ لئن ذلك صفة مَنْ يجهل كون الله مالكاً للأمر

والنهي، والجاهل بالله لا يكون مؤمنًا فضلاً أن يكون نبيًا، ومغاضبته لقومه كانت غضباً لله." (محمد الصابوني)

خرج يونس من نينوى وهو يظن أن الله لن يعتب عليه، قال تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي: فظن يونس أن الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج، ولن يضيق عليه الأرض بما رحبت بسبب تركه لقومه وهجرته لهم قبل أن يؤمر بذلك.

قال الحسن : " وهو من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الرعد: ٢٦) أي: يضيق الرزق على من يشاء، وقوله: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ (الطلاق: ٧) أي: من ضيق عليه رزقه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تصحيح مهم:

فُسر قوله: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بأن إبليس استزله، حتى وقع في ظنه أن الله لن يقدر عليه بمعاقبته، قال القرطبي: " وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر. " (القرطبي: ٢٠٠٢)

" وروي أنه دخل ابن عباس على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها فلم أجد لي خلاصاً إلا بك، فقال: وما هي؟ قال: يظن نبي الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة." (محمد الصابوني)

كشف العذاب عن قوم يونس:

قوم يونس لما رأوا خروج يونس من بين ظهرانيهم، ولما تحققوا من أخطائهم، عندها قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، فندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، ورجعوا إلى ربهم.

ولك أن تتخيل مشهد توبتهم هكذا: صراخ وعويل، تضرع وتمسكن، بكاء وأنين، دعاء من الرجال قبل النساء.

عند ذلك كشف الرحمن الرحيم بمنته ورأفته وحوله عنهم العذاب الأليم، ورفع عنهم العقاب القريب، الذي قد اتصل بهم سببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ (يونس: ٩٨) أي: هلا سمعت عمن سلف من الأمم والقرون أن هناك قرية آمنت بكاملها!!

الجواب: لا، لم يقع ذلك قط، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سبأ: ٣٤) ، ما عدا ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (يونس: ٩٨) أي: آمنوا كلهم فكشف عنهم العذاب.

والمعنى: لم تؤمن قرية بجميع أهلها سوى قرية يونس، فقد آمن جميع أهلها، قال القرطبي: " ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى استثناء متصل؛ لئن تقديره: ما آمن أهل قرية (بأكملها) إلا قوم يونس. " (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟

الأظهر من السياق، نعم والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨ ﴾

وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، والله أعلم. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

يونس في عرض البحر:

لم يعلم يونس بتوبة الله على قوم، فاستمر في الخروج من البلدة، تاركاً وراءه قومه، وأخذ يهمّ في السير مبتعداً عن قريتهم، حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة على سفر، فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم، فأركبوه.

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (الصافات: ١٤٠) أي: اذكر حين ركب يونس السفينة المملوءة بالركاب والأحمال، وكونها مملوءة بالركاب والأحمال يدل ذلك على ثقلها وأنها على وشك السفر.

قال المبرد: " أصل أبق تباعد، ومنه غلام آبق، وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله – عز وجل – مستتراً من الناس." (القرطبي: ٢٠٠٢)

أبحرت السفينة، ولما توسطت البحر ثقلت بما فيها وكادوا يغرقون، ولك أن تتخيل حال ركاب السفينة، فقد ضربهم الخوف والهلع، فظنوا أن ذلك بسبب حمولة

السفينة الضخمة، فأخذوا يرمون بضاعتهم في البحر بدون وعي، غير أن السفينة ظلت على حالها، فقالوا: نرمي واحداً منا في البحر!!

ما الذي دفعهم ليقولوا ذلك؟

قال الطبري: " إن يونس – عليه السلام – لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم! فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي أنا فألقوني في البحر! وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وما ذكره ابن جرير – رحمه الله – فيه نظر، ويظهر أنه من الإسرائيليات.

وقال الصابوني: " قال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيده، ولا بد لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق." (محمد الصابوني)

وما ذكره الصابوني – رحمه الله – فيه نظر أيضاً، على كل حال استقر رأيهم أن يرموا واحداً منهم، والله

أعلم لِمَ قرروا ذلك؟! ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام معضلة صعبة، من الذي نلقيه؟

فاهتدوا إلى إجراء قرعة، فمن وقعت عليه هو الذي يلقى من السفينة، وجرت القرعة، وكان من بين المقترعين – بالطبع – يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ (الصافات: ١٤١) أي: قارع يونس معهم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الصافات: ١٤١) أي: كان من المغلوبين بالقرعة حيث وقعت عليه، فكان ما قدره الله تعالى.

١– **تصحيح:** ذكر المفسرون أنه لما وقعت القرعة على يونس، سُقط في أيديهم، فلم تسمح أنفسهم بذلك، فأعادوا القرعة ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت القرعة تقع على يونس.

وهذا الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه في القرآن ولا السنة الصحيحة؛ لذا الصواب أن القرعة كانت مرة واحدة والله أعلم.

يونس في بطن الحوت:

أُلقي يونس في عرض البحر، وصار وحيدًا إلا من رعاية الله وحفظه، يصارع الأمواج، ويحاول النجاة، وفي أثناء ذلك إذ بالموقف يزداد صعوبة أكثر، فقد بعث الله تعالى حوتاً حقيقياً عظيماً فالتقمه.

قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الصافات: ١٤٢) أي: فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربه." (محمد الصابوني)

لطيفة:

" قوله: (وهو مليم) أي: أتى بما يلام عليه، أما الملوم: فهو الذي يلام استحق ذلك أو لم يستحق.

وقيل المليم: المعيب." (القرطبي: ٢٠٠٢)

أمر الله الحوت ألا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فيونس ليس له رزقاً؛ لذا مكث يونس في بطن الحوت سليماً حيّاً ما شاء الله أن يمكث.

كم مكث يونس في بطن الحوت؟

قيل: كان يوماً التقمه ضحى ثم لفظه عشية، وقيل: مكث فيه ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً .

وظاهر القرآن وصحيح السنة لا يدلان على ما قدره المفسرون؛ لذا الصواب رد هذا إلى علم الله.

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين:

صار يونس في بطن الحوت في بطن حوت ضخم مكروباً، وتحيطه ظلمات ثلاث تحويطاً: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، فعلم أن ذلك عقوبة له من ربه.

قال عبد الرحمن حبنكة: " عَلِمَ يونس أن ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم، وبدون إذن صريح من الله له، وإن كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكن مثل هذا الاجتهاد وإن قُبِلَ من الصالحين العاديين فإنه لا يقبل من المرسلين المقربين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللوم والتأديب الرباني." (محمد الصابوني)

اشتدت الكربة بيونس، فألجأ ظهره إلى الرحمن الرحيم، فنادى ﴿ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ (القلم : ٤٨)_أي: دعا ربه وهو في بطن الحوت وقلبه يكاد يتفجر غمًا، فقال: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظلمين لنفسي، فاكشف ما بي من منحة وكربة.

وصلت هذه الاستغاثة إلى رب السموات والأرض، فاستجاب لها ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ (الأنبياء: ٨٨) أي: نجيناه من الضيق والكرب اللذين ألما به وهو في بطن الحوت ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ (الأنبياء: ٨٨) أي: كما نجينا يونس من هذه الكربة كذلك نخلص المؤمنين من كربهم بما سبق من عملهم.

وذلك قوله: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾ (الصافات: ١٤٣- ١٤٤) أي: فلولا أنه سبح الله في بطن الحوت، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والإذعان لله بالخضوع، والرجوع بالتوبة إليه، للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وصار بطن الحوت له قبراً له فلم ينج منه أبداً.

وقيل أي: فلولا أنه كان من قبل أخذ الحوت له (من المسبحين) أي المطعين المصلين الذاكرين الله كثيراً للبث في بطنه إلى يوم القيامة.

وكلا المعنيين صحيح.

كانت هذه النجاة رحمة من الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (القلم: ٤٩) أي: لولا أن تداركته رحمة الله ﴿ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القلم: ٤٩) أي: لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة، فلم يبق مذموماً. " (محمد الصابوني)

وهكذا حفظ الله تعالى عبده يونس، وراعى له حق تعبده، وحفظ زمام ما سلف من الطاعة، قال أبو اسحاق: " صحب ذو النون الحوت أياماً قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده لا يظن به ذلك؟

نعم الله تعالى على عبده يونس عليه السلام:

كانت أول هذه النعم أن أنجاه الله من بطن الحوت، قال تعالى: ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ ﴾ (الصافات: ١٤٥) أي: ألقيناه على الساحل بالأرض العراء، والعراء هو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها.

خرج يونس من بطن الحوت سقيماً في أرض عراء، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ ﴾ (الصافات: ١٤٥) أي: ضعيف البدن وقيل كهيئة الفرخ ليس عليه شيء.

فكانت النعمة الثانية أن أنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ لتكون له ظلاً وأكلاً وفوائد أخرى، قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾ (الصافات: ١٤٦) أي: " وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرّ الشمس، وهي اليقطين هي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة. " (محمد الصابوني)

لِمِ اختار الله شجرة اليقطين (القرع) من بين الشجر لإنباتها على يونس بالذات؟

بإمعان النظر تجد أن يونس عندما خرج من بطن الحوت كان يعاني ثلاثة أمور: العراء، والإعياء، والهزال.

فكان فضل الله عليه عظيماً بإنبات شجرة اليقطين عليه، فحماه بظل ورقها الكبير الظليل من حرّ الشمس، وقواه بثمارها الطرية المفيدة.

قال ابن جزي: " وإنما خص القرع بالذكر؛ لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب." (محمد الصابوني)

قال بعض العلماء: " في إنبات القرع عليه حكم جمة، منها أن أوراقه في غاية النعومة، وكثير ظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره في أول طلوعه إلى آخره، نياً ومطبوخاً، وبقشره وببزره أيضاً." (محمد الصابوني)

ومن إنبات القرع حكم أخرى: فالقرع سريع النمو، والإزهار، والإثمار، وثماره تحتوي على المواد الغذائية اللازمة للجسم، وليس لثماره رائحة تجذب الحشرات، ولله في خلقه شؤون.

نجّى الله يونس من الكرب العظيم، وأعاد إليه قوته ونشاطه القديم، ثم أنعم عليه بنعمة ثالثة عظيمة لا تضاهيها نعمة، ألا هي نعمة تبليغ الحق والخير للناس، فالأنبياء الربانيون والدعاة المصلحون تعد دعوة الناس إلى الخير أفضل نعمة أنعم الله بها عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (الصافات: ١٤٧) أي: أرسلناه بعد أن خرج من بطن الحوت، وعادت إليه عافيته إلى مئة ألف أو يزيدون.

إذا قلت (أو) للشك، وهو على الله محال، قلت: (أو) بمعنى (بل أو الواو) أو المعنى: أو يزيدون في نظرهم، فالشك إنما داخل في قول المخلوقين.

وذُكر:" والعرب تخرج الكلام المتقين في صورة المشكوك بناءً على تصور المخاطب وظنه، ومعنى الآية أي

أرسلناه إلى قوم هم من الكثرة بحيث لو رأيتهم لشككت، وقلت مئة ألف أو يزيدون عليهم، ومعلوم أن الله تعالى لا يخفى عليه عددهم." (خالد السبت: ١٤٢١هـ)

واتفق المفسرون أن عدد من أرسل إليهم بعد خروجه من بطن الحوت مئة ألف لا محالة، أما الزيادة اختلف فيها على أقوال، منها:

هي عشرة آلاف، وقيل: عشرين ألفاً، وقيل: ثلاثين ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل بضعة وأربعين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً.

والصواب: عدم القطع بشيء من ذلك؛ لعدم ورود دليل شرعي عليها، فنرد ذلك إلى علم الله.

أكان إرساله إلي هؤلاء المئة ألف قبل ابتلاع الحوت له أم بعد؟

اختلاف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: إن رسالة يونس – عليه السلام – لهم كانت بعدما خرج من بطن الحوت، وينسب ذلك لابن عباس.

القول الثاني: إرساله إليهم كانت قبل أن يبتلعه الحوت وحكي ذلك عن مجاهد.

وحكى البغوي قولاً مغايراً عما سبق، وهو أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من بطن الحوت، كانوا مئة ألف أو يزيدون.

ولعل القول الأول هو الصواب والله أعلم.

تمت نعم الله على يونس بن متى ﴿ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ ﴾ (القلم: ٥٠) أي: " فأصفاه ربه

واختاره لنفسه، فجعله من المقربين" (محمد الصابوني)

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

يونس عليه السلام

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة يونس - عليه السلام –

تمهيد:

قصة يونس كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. المعاينة التي لا تنفع التوبة معها:

المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة يونس على أثر قصة فرعون؛ لأنه آمن حين رأى العذاب، فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك، ويَعْضُدُ هذا قوله صلى الله عليه وسلم: " **إن الله يقبل التوبة العبد مالم يغرغر**. " (رواه الترمذي: ٣٥٣٧)

والغرغرة هي الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا، ويكون معنى ﴿ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ ﴾ (يونس: ٩٨) أي: العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنهم رأوه عياناً ولا مخايلة، وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص.

وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء، وروي عن علي رضي الله عنه: " إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء ليرد القدر."

٢. القرعة:

القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما ذكر في سورة آل عمران.

قال القرطبي: " قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاث مواطن:

الأول: كان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم، فأعتق اثنين وأرق أربعة.

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست، فقال: اذهبا وتوخيا الحق، واستهِما وليحلل كل واحد منكما صاحبه.

فهذه ثلاث مواطن، وهي: القسم في النكاح، والعتق، والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي.

واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين، الصحيح منهما الإقراع، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إيثار، فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك في مسألة الأعبد الستة، فإن كل اثنين منهما ثُلث، وهو القدر الذي يجوز فيه العتق في مرض الموت، وتعينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً، فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث، لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل.

وقال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها، ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٣. هل يجوز إلقاء الآدمي في البحر؟

قال القرطبي: " الإقراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل، ولا يرمي به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم اضطروا إلى تخفيف السفينة، وأن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفًا، وهذا فاسد، فإنها لا تخفّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله تعالى." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ويشبه هذا الاعتقاد ما كان عند المصريين في زمن الفراعنة، فلما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص وكان لها أميراً، فقالوا: أيها الأمير، إن نيلنا لا يجري إلا بسُنة، قال: وما ذلك؟ قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت عن هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضيناهما، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما

يكون ثم ألقيناها في هذا النيل إلى آخر القصة التي ذكرها ابن كثير في تفسيره.

٤. العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر:

قال القرطبي: "أخبر الله – عز وجل – أن يونس كان من المسبحين، وأنّ تسبيحه كان سبب نجاته، ولذلك قيل إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

قال الربيع: لولا أنه كان قبل ذلك عمل صالح (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)

ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " **من استطاع منكم أن تكون له خبيء من عمل صالح فليفعل**؟ (رواه ابن أبي شيبة: ٣٥٧٦٨)

فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، ويخلص فيما بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه، ومن ذلك قصة الثلاثة نفر الذين انحطت على فم الغار صخرة فانطبقت عليهم، فقال

بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها؛ لعله يفرجها عنكم إلى آخر قصتهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وبالجملة: " **احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة.** " (رواه أحمد)

٥. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين:

روي عن النبي: " **دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له.** " (رواه الترمذي: ٣٥٠٥)

وروي عن سعد بن مالك: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: **اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال: فقلت يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة**

المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ (الأنبياء: ٨٧)، **وفي هذه الآية شرط الله لمن دعاه بها وهو قوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ (الأنبياء: ٨٨)" (رواه ابن جرير الطبري)

لطيفة:

ليس في الآية السابقة ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، صريح دعاء، وإنما هو مضمون في قوله: (إني كنت من الظالمين)

فالاعتراف بالظلم كان تلويحياً بالدعاء.

٦.لا ينبغي لعبد أن يقول؛ أنا خير من يونس بن متى؛

صح عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قوله : " **لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى.** " (رواه البخاري: ٣٣٩٥)

ويفهم من هذا الحديث أمور:

الأمر الأول: تنزيه يوني من أوهام الأغبياء الذين يقللون من شأنه عليه السلام.

قال النووي: قال – صلى اله عليه وسلم – هذا الكلام زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين من حط مرتبة يونس عليه السلام من أجل ما في القرآن العزيز من قصته.

وقال بعض العلماء: والسبب في قول النبي صلى اله عليه وسلم هذا – والله تعالى أعلم – هو أنه قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين عندما يقرأ قول الله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ

وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾ (القلم ٤٨ -٤٩)

أن ذلك نقص في حق سيدنا يونس عليه السلام، مع أن الله تعالى عندما قص علينا قصته قال بداية: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ (الصافات: ١٣٩)

يعني: استقبلوا قصته على أنه نبي مرسل، والله يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ١٢٤﴾ (الأنعام: ١٢٤)؛ لذلك قال - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فكأنه يقول صلى الله عليه وسلم: اتركوا مقاييس المفاضلة لله تعالى، فهو الذي يفضل بين خلقه، مَنْ أنتم حتى تفضلوا؟!

الأمر الثاني: لا ينبغي لأحد أن يفضل الرسول على يونس بن متى عليهما الصلاة والسلام، كما ورد في بعض الأحاديث: " **لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى.**"

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، فالرسول أفضل الخلق أجمعين.

قال النووي : أنه – صلى الله عليه وسلم – قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: أنا سيد ولد آدم، ولم يقل هنا أن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه.

الأمر الثالث: أن في هذا الحديث شرف كبير وفضل عظيم ليونس بن متى عليه السلام.

٧.ارتكاب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه:

قال السعدي: " عمل أهل السفينة دليل على القاعدة المشهورة: أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعض

أحمالهم كان فيه ضرر، ولكن عطب الجميع إذا لم تلق أحمال بعضهم أعظم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

٨. بين دعوة يونس عليه السلام وفرعون:

استجاب الله ليونس - عليه السلام - عندما نادى في الظلمات، ولم يستجب لفرعون عندما قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (يونس: ٩٠)

قال الرازي: " إن يونس كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة (الدعاء)، فَسَبْقُ المعرفة إعانة على قبولها منه.

أما فرعون فقد تقدم له سَبْق النكرة؛ وذلك لأنه كان ينادي بربوبية نفسه، قال تعالى: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النازعات: ٢٣ -٢٤)

أما يونس فإنه ينادي بربوبية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ (القلم: ٤٨)، وقال: ﴿

فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ (الصافات: ١٤٣)، وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات فإن الله يحفظه في الفلوات." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

الخاتمة

الدعوة إلى الله مهمة شاقة مضنية، ومليئة بالصعاب والعقبات، ولما كان هذا شأنها ضرب الله للناس عامة وللدعاة خاصة مثلاً بليغاً في أهمية الصبر على مشاقها وتحمل لأواءها إلى أن يحكم الله ما يريد.

فكانت قصة يونس أو ذي النون الذي أرسله الله إلى أهل نينوى بالعراق، فدعاهم ونهاهم، فلما أسفوه غضب عليهم لأجل ربه، فاستعجل وخرج من بينهم بدون إذن من الله.

وأثناء خروجه من بين ظهرانيهم قذف الله التوبة في قلوب قومه بعدما اتصل العذاب بهم، ودار فوق رؤوسهم.

لم يعلم يونس بخبر توبة الله على قومه؛ لذا استمر في الخروج من البلدة، حتى وصل إلى البحر، فقدر الله تعالى أن يركب إحدى السفن، فكان التأديب الإلهي له بأن ألقي في البحر ثم التقمه الحوت.

صار يونس في بطن حوت كبير، بعدما كان يصارع بحر خطير، فكانت الثانيةِ أشد من الأولى، فعل الله به ذلك ابتلاء له ولرفع درجته؛ ولْيُعَلّم الله الناس درساً مهماً ألا هو أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

وبالفعل نجّى الله يونس من بطن الحوت بسبب أنه كان قبل ذلك من المسبحين العاملين الخير الكثير، بل وأنعم عليه بنعم عظيمة، فاجتباه فجعله من الصالحين.

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١. إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٣. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١ هـ.

٤. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان اليمامة، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٠ م.

٥. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء فصول في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٦. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

٧. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.
٨. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٢م.